رواية
فتاة من بغداد
٢٠٠٦
رزگار كريم
فتاة من بغداد
رواية
رزگار كريم
A Lass From Baghdad
Rzgar Kareem
Nevel

رواية

فتاة من بغداد

رزگار كريم رشيد

2007

الكتاب/فتاة من بغداد (رواية)
المؤلف/ رزگار كريم رشيد
سنة الطبع /2006
رقم الإيداع : (1091) لسنة (2006) .
البريد الإلكتروني للمؤلف: rzgarra@yahoo.com

الإهداء إلى

الأرواح الطاهرة والبريئة ؛ والتي فقـــدت الحيـــاة في معسكرات الموت ..

الذين نجوا من معسكرات الأنفال بأعجوبة..

من جعل جُلَّ همه الإنسان والحفـــاظ علـــى كيانـــه المقدس..

من يبحث عن الحقيقة..

1

كانت لحظة هامة في حياتها وفي حياة العائلة إذ أنها لم تغادر بغداد منذ أن فتحت عينيها" وهي واقفة كطفلة بريئة أمام أمها وأختيها وأخيها الذي يحمل الحقائب لها والمشاعر تتلهب والدموع كادت أن تتساقط لولا تماسكها ...كانت لحظة حزينة ومؤلمة على قلب كل واحد من أفراد العائلة، والام ترتجف عندما احتضنتها وهي لا تدري هل ستراها مرة أخرى أم أنها لحظة وداعٍ نهائي...

مرت اللحظات بسرعة فائقة ولم يتنبهوا إلا على صوت السائق الذي صاح قائلاً:

ـ لقد تأخرنا ...الوقت يداهمنا...

فتحركت باتجاه السيارة والحُزن جاثم على قلبها" وهي لاتدري الى أية عوالم تتجه وأين يقف بها المسير...

بالأمس كانت فتاة بريئة نشأت في وضع مستور وبحكم استشهاد والدها في المعركة اتجهت عواطفها نحو الحزب وقائده" فوجدت نفسها داخل الحزب وشُعَبِه المُضَلِّلَة...!وتمكنت من تكميل دراستها وتخرجت من دار المعلمات، وباتت تزاول عملها المهني والحزبي معاً...لكن القدر لم يكن في صالحها" إذ أن حبيب القلب والعمر غدر بها، وبعد سنوات الحب والغرام

المتبادل تركها لحالها ولم يبق بينهما سوى ذكريات أليمة وأحزان لاتنسى أثرها إلا بالابتعاد عن بيتها ومدينتها الجميلة التي نشأت فيها وقضت فيها أيام الطفولة والدراسة ...

وحقا كانت لحظة مؤلمة على إحساسها الرقيق ومشاعرها الرنانة وهي تودع البيت والذكريات وكل شيء جميل حول البيت والمدينة...حتى الطرقات ومدخل المحلة والدكاكين لها وقعها الخاص على قلبها، وبدت لهم فتاة قوية لا تتزحزح أمام المشاعر وتلك اللحظات المؤثرة " لكنها في قرارة نفسها تحترق وتنزف دما ونسيم الصباح يداعب وجهها الشاحب وشعرها المتدلي من غير انتظام ، وهي كالشعراء الجاهليين لحظة الوداع فتذكرت قول الشاعر الجاهلي عندما قال:

وَدِّع هُرَيرَة إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلٌ

وَهَل تُطيقُ وداعا أَيُّهَا الرَّجُلُ

فلم تستطع رغم حرصها الشديد إخفاء مشاعرها وتمالك نفسها فتساقطت العبرات الواحدة تلو الأُخرى خُفية والنظرات تأتي وتذهب بسرعة، وفي لمحة بصر أصبح للماضي شأن آخر وهي تحدق بما حولها في سرعة نحو عالم جديد مليء بالأحاسيس والحوادث والأشياء المجهولة...بدت لها الخطوة صعبة، ولامت نفسها على قرارها الخوض في تلك التجربة ، لكنها سرعان ما تذكرت حبيبها المخادع واللحظات المشينة معه، وهتك الخيط الذي تعرف به فتاة مثلها في المجتمع، أحست بالعار والخزي وتحت تأثير العواطف كرهت كل شيء في المدينة وحتى نفسها التي بين جنبيها " كرهتها بشدة " وهي تتذكر انخداعها على يد الإنسان الوحيد

الذي أحبته ولم تَخُنه طيلة سنوات الحُب حتى لم تمانع من ممارسة الجنس معه بشكل سري وارضاء رغبته في خفاء تام لمرات عدة... إلى أن نال منها ما أراد وتركها تكابد الألم والمعاناة وحدها، وهي تذكر كلمات الحبيب الكاذب عندما قال لها آخر مرة:

ـــ إنني لا أستطيع أن أختارك زوجة وشريكة عمري ...! بل يمكن أن تستمر العلاقة بيننا هكذا... ! !

وعندما غضبت منه رد عليها بقوله:

ـــ انك ساقطة ...ساقطة... لا تمانعين في...

ومنذ تلك اللحظة لم تعد هي تلك الفتاة التي عُرفت من قبل الجميع... ومرت أيام قليلة على آخر لقاء بينهما، وقررت أن تبتعد عن البيت والمدينة كي يسعفها الوقت في نسيان ماضيها وحبيبها الخادع...ولحين تلك اللحظة لم تدر كيف قررت المغادرة والذهاب نحو عالم مجهول وديار لم تألفها من قبل، غريبا عنها حتى على المشاعر والأحاسيس" وبالأمس كانت تنظر إلى ساكنيها كالوحوش وتكره لغتهم ولباسهم وكل ما يرمز إليهم...والآن تتجه نحو ديارهم لتنسى الهموم والأحزان الجاثمة على قلبها... !كيف تعيش بينهم وهي لا تعرف لغتهم ولم تألفهم ، ولم تبتعد عن بغداد سوى أيام لقضاء العُطل في الحبانية والمصايف القريبة منها...حاولت السيطرة على شرود ذهنها والتفكير في أشياء وحوادث مجهولة...وقفت عن التفكُر بقرارها والذهاب للديار البعيدة...نظرت من نافذة السيارة إلى الرطل العسكري في الاتجاه المعاكس وتماثلت لها حالة الحرب التي يمر بها البلد وتذكرت والدها الشهيد وما ذاقت من حرمان وحزن شديد طيلة حياتها على موت ابيها،

كرهت الحرب وكل ما يرمز إليه من الدبابات والمدافع والعربات المصفحة وحتى اللباس العسكري... كيف لا وهي ضحية الحرب المدمرة، وبوفاة والدها فقدت الحنان والعطف ولم تهنأ العائلة منذ ذلك اليوم المشؤوم بحلاوة الحياة، وحالة الأُم والجدة العجوزة التي ماتت حزنا لازالت تهيج ذاكرتها فتحس بمرارة الحرب وكرهها حتى لرموزها المعروفة بالأبطال...!

كرهت كل شيء حتى قائد الضرورة وباني أمجاد الأُمة، والحزب الذي انخرطت في صفوفه منذ اليوم الأول من دراستها في دار المعلمات، وعندما قررت مغادرة بغداد تم ذلك بإيعاز منه وبشكل سريع دون عوائق...

كرهت الحالة البائسة للبلد وعدم استقرار الوضع فيه، عزت ذلك الى الدولة المعادية والمتمردين أو أعداء العراق حسب ما قاله القائد وأعوانه في الحزب" هم كتلة الشر ضد حزب الخير في العراق وقائده البار ورموزه الأوفياء والأجلاء..!!

شددت على تفكيرها بقوة حتى تقتنع بأقوال الحزب ورفقائها لكنها أحست بالفشل فلم تر الأحداث والوقائع بوضوح تام وبشفافية براقة، بل هول الخيبة والشعور بالإحباط وخداعها من قبل الحبيب أثرت عليها وشلّت بوادر تفكيرها وتشتت أفكارها من جديد حول موطن الأكراد وبلدهم العجيب ، بلد الجبال والثلوج والمناظر الساحرة والخلابة... تُرى هل تنعم بالسلام وبراحة البال ؟ أم أن شقائها وبؤسها سوف يستمران إلى الأبد ... وهل فقدانها للسعادة وأغلى ما عندها في بغداد سوف تجدها في السليمانية " المدينة المعادية في نظر الحزب والمكان الموبوء بالفتن والثورات...؟!

لماذا اختارت السليمانية دون المدن الكوردية الأُخرى؟! هل أن بُعْدَها عن بغداد يُعَدُ السبب الأوحد في نظرها أم يرجع ذلك أيضاً إلى روح التحدي من جهة والشعور باليأس من الحياة ونسيانها لهويتها العربية في خضم ما مرت بها من جهة أُخرى... ! !

شعرت بالدوران والغثيان خشية أن تكون قد حملت من الحبيب السافل" أحست بالخزي والعار من جديد وتحركت في السيارة ممدة رجليها وضغطت على بطنها بقوة حتى شعرت بالألم، وجذبت نظرات السائق اليها، لكنها عبرت عن ذلك بقولها:

ـــ أشعر بالتعب... سهرت الليل كله في الإحضار لهذا السفر...

حاول السائق المشاركة معها في الحديث بقوله:

ـــ نعم...نعم...يُقال : إن السفر قطعة من العذاب...

أثناء حديثهما خرجت سيارة عسكرية عن مسارها وسكتا عن الكلام خوفاً من وقوع حادث...وبعد زوال الخطر تنفسا الصعداء وقال السائق:

ـــ إنَّ الطريق في هذا الوقت مليئة بالمخاطر، القوات العسكرية تتجه نحو جبهات القتال ، أعداء العراق كثر كما يقول السيدُ الرئيس ـ حفظه الله ـ ولابد من الوقوف لهم بالمرصاد وقطع رؤوسهم...

لم ترد على كلامه بل شرعت في السؤال عن شيء آخر فقالت:

ـــ متى نصل كركوك؟

+بعد ثلاث ساعات تقريباً...

أرادت أن تسأل السائق عن الوضع في المناطق الكوردية لكنها تراجعت ولم ترغب في الكلام معه ، رأت في نظراته جشاعة خفية ومحاولته التقرب

منها...هدأت من روعها لأن السائق مـأمور المنظمـة فـلا يـستطيع إرغامهـا على شيء تكرهه ، ولابد أن السائق يحب الرجوع بسرعة الى بغـداد بعـد أن يوصـلها للـسليمانية ...صـرفت فكرهـا وشـعرت بالرغبـة في النـوم ومـدت المعطف على صدرها والتوت في إحدى جنبات مـؤخرة الـسيارة وغاصـت في نوم عميق...

لم تستيقظ من نومها إلا في مدينـة كركـوك وعلـى صـوت الـسائق أثنـاء وقوفه في الطريق المزدحم وشعرت براحة البـال واسـتعدادها للواقـع الجديـد والمكان الذي تأوي إليه كي تحس بالراحـة والطمأنينـة وتمـسح غُبـار العـار والفضيحة عن نفسها وعائلتهـا المعروفـة بالمحافظـة علـى الـسلوك ومراعـاة الآداب الدينية والاجتماعية...

كانت تنظـر إلى مدينـة كركـوك بغرابـة ، وتـرى الأكـراد مـزدحمين علـى جنبات الطريق ، ولم تر بوادر العُمران على المدينة الغنية بـالبترول... لأول مرة تبين لها أن أقوال الحزبيين في غير محلها" كيف لمدينة كهذه أن تكون هكـذا...؟!أيـن تُـصرَف ثـروات المدينـة؟ ومـن المـستفيد ؟ " الحُكـام أم سكانها أو العراق بأسره ... ؟

أسئلة عديدة لم تجد لها أجوبة شافية ومقنعة " فخافت أن تبوح بـشيء والسائق يكتب تقريراً، فسكتت مـن جديـد وهـي تنظـر للأكـراد في الـشوارع والطرقات يرزخون تحت عبء الحياة والمدينـة بمنـأى عـن مظـاهر العمـران والحضارة...عزت مظاهر الخراب للحرب وويلاتها المستمرة ، فكرهت الحرب وكظمت غيضها حتى تصبها على مشعليها ومن يسعى فيها...

ونتيجة لراحة بالها بالخطوة الهامة في حياتها دقت ملامح الحرية على قلبها فملكت الدنيا وما فيها..خرجت من بغداد نحو مدينة نائية لا تعرف لغة أهلها ولم تألف العيش بينهم، وتركت الفاسق الخائن يركض وراء الأُخريات ليغريهن ويستخدمهن كالجواري إرضاءً لشهواته...همّت بالانتقام لنفسها لكنها لم ترض بذلك لسبب واحد هو صدقها في الحب وتركت الفاسق المخادع لعواقب الأيام وما يجري تحت وقعها...

فرحت من جديد لهروبها من الحزن والألم النفسي، أرادت أن تظهر كفتاة قوية الشخصية ، نظرت لنفسها في المرآة فرأت وجهها جميل وفاتن...فرحت بجمالها وأناقتها ، لكنها لم تفكر في الحب مرة أُخرى "بل حتى في الرجال لأنهم مثل الأفاعي في نظرها...أرادت إذلالهم بجمالها " لِمَ لا ؟ أما يحاول السائق المتزوج دخول عالمها وجذبها إليه...!!؟ لا..بل هي أقوى من أن تُلدَغ مرة أُخرى...لابُد من كسر شوكة الرجال وإذلالهم وصب غضب فتاة بريئة ومخدوعة عليهم...أليسوا مصدر الجشع والشهوات...أليسوا بمثابة الشياطين...والمرأة الناعمة والرقيقة في نظرهم مثل ناقة خاضعة يمتطونها وقتما يشاؤون وتترك حيثما يريدون...!!؟ " فحري بي إذلالهم " هم أصل الشر وكل البلايا...لم يحسوا بالمخلوق اللطيف والجنس الناعم وبذلوا قصارى جهدهم في إرضاء الشهوة...الشهوة اللعينة والمزرية...شهوة آنية والتفريغ منها في لحظات معدودة...كم أكره ذلك...أنا لست ملكا لأحد...أنا حُرة...لا أرحم الرجال أبداً...فالخائن الفاسق منهم ، فكلهم من جنس واحد، آه كيف سلمت نفسي له وأتمنته..؟ لكنه كان خائنا وشهوانيا..ومرضيا للشهوة...كم أنا ساذجة "

لمـاذا لم أحـس بـه منـذ اللحظـة الأولى...أمـا حـاول إغـوائي للوهلـة الأولى...ومـسك ذراعـي ولم يتركـني إلا بعـد أن غطـني بـين ذراعيـه اللعينتين...! لا أتحمل أن أفكر في ذلك أبداً أذلك السافل خـدعني ببـساطة ونال مني زهرة عمـري وسـر حيـاتي...!!؟لا أحـس بـشيء سـوى الخـزي والعار...!متى أنسى اللحظات التي تجرح مشاعري وتخرجني من إنسانيتي وأبدو كساقطة رخيصة... إنها غلطتي " فقد كنت ساقطة حقا...!! لمـاذا لم أتنبأ لذلك الوغد السافل...انه ضيع كل لحظة جميلـة بالـشهوة والتمتـع الـذاتي والآنـي...آه ...آه...بـأي وجـه أواجـه الحيـاة مـن جديـد...أكـره الرجـال أكـرههم ولا أُبـالي بهـم ، إنهـم ذئـاب مفترسـة...مـن فـصيلة نتنـة...كالجيفـة الملقيـة في الزبـال...آه مـنكم يـا معـشر الرجـال ...!! لا أُبالي أنا حرة " حرة...خُلقت لإذلالكم...".

دوخت رأسها بهذه الأفكار، والسيارة تبتعد عن كركوك رويداً رويداً وهي تغادر حياتها القديمة ،ولم يكن سفرها للبحث عن حرية بل كـان هروبـاً مـن الفشل والشعور بالإحباط وستراً لفضيحة قـد تظهـر يومـا مـا وتبـدو الفتـاة البريئة في نظر المجتمع شيطانة ماكرة...أو ضحية لخـداع الرجـل الـشهواني ودسائسه المـستمرة...تركـت بغـداد لأنهـا مـع فـسحتها ضـاقت بهـا ذرعـاً واتجهت لمدينة كوردية عسى ولعل تجد فيها السعادة وتعـود إليهـا نـشوتها ونشاطها...

2

بعد سفر مرهق وصلت السيارة للسليمانية...فالمدينة منذ اللحظة الأولى كانت محل استغرابها " وفي قلب المدينة الجميلة الواقعة قُربَ الجبال...تذكرت حين رؤيتها للجبال الأقوال الشائعة عن تمرد الأكراد وتحصنهم في الجبال، فكان الجبال حُصناً مانعا ودرعاً واقياً لكل هجمة أو قوات تستهدف اعتقال المتمردين...

كانت المدينة في مخيلتها عجيبةً وواقعاً غير مألوف...فاللباس الكوردي والمباني الواقعة على مشارف المدينة ونظافة المدينة ورقتها محل استغرابها وألف سؤال وسُؤال...

"ما سر جمال هذه المدينة النائية عن العاصمة ؟!هل يكمن في ذوق أهلها ؟ لماذا يوصف بالشر وبؤرة الفتنة والقلاقل...؟!أين المتمردون ؟ الناس يمُارسون حياتهم الاعتيادية " وثمَّة شيء آخر لا يُرى للغريب القادم"

تحركت نار الغربة بداخلها فاحترق قلبها لأهلها ومسقط رأسها ، لم تتعود على الغربة وآلامها ، وفي لمحة بصر حنت للماضي وأيام الطفولة...فاضت عيناها بالدموع وهي تحوم بذكراها حول بيتها وتذكرت والدها الشهيد وأمها وكل من له أدنى صلة بها كيف تركتهم ؟!هل تراهم مرة أُخرى ؟!لِمَ كل هذه المعاناة والآلام ؟ إن الحياة شيء تافه " ولا معنى

ولا قيمة ذاتية لها فلا أحد ينعم بالسعادة والأمن والاستقرار طيلة حياته...هل إن بوادر الشقاء يكمن وراء جنبات السَعادة...؟! لابد لهذه المعاناة والآلام من معنى خاص وتفسير منطقي...

ولم تستقر على معنى للأحداث المؤلمة على نفسها ...حاولت كسر الحلقة الفارغة لتفكيرها والأسئلة التي قد لاتجد لها جواباً ولا معنى مشابها لها...

وقف السائق أمام بناية تطل على شارع مزدحم بالسيارات ومكتوب عليها "منظمة حطين"...

نزل السائق من السيارة ودخل المنظمة بسرعة ثم خرج وبرفقته شخص يرتدي زيا مدنيا ، ورحب بالفتاة وبدا من كلامه وعدم فصاحته أنه كوردي...

لم تعجبها نظرات العميل الكوردي ، وكتمت في نفسها عدم رغبتها الذهاب لبيته واستئجار غرفة منه ولكنها لم تجد بُداً في الإمتثال لأمر رئيس المنظمة سوى الإذعان له واتباع خطى مسؤول الحزب حفاظاً على السلامة الشخصية وسط هذه المدينة الخطيرة...فتخويف القادم من قبل الحزب كان أمراً ضرورياً ومألوفاً، وحرياً بها أخذ الحيطة والحذر " وخاصة في تلك الأيام لأن قتال المتمردين كان في أوجه، والليل في السليمانية نذير شؤم على الحزبيين رغم سيطرتهم التامة على مداخل ومخارج المدينة ونشوء حالة الرعب في صفوف المواطنين الأبرياء...!

وبعد تبادل القبلات والترحاب بين زوجة صلاح والفتاة بقيت وحدها، ووجدت غرفتها مرتبة بشكل جيد، فقبل وصولها رتب مسؤول المنظمة كل

شيء لها...فهذه الخدمات كانت معروفة بين الحزبيين فوجدت غرفتها ممتلئة بالأشياء الضرورية كالثلاجة والتلفاز والسرير ودولاب لحفظ ملابسها ومنضدة وكرسيٍ وأشياء أخرى مرتبة حسب ترتيب عجيب ومثل بيتها تماما ...ورأت مرآة طويلة معلقة على الحائط المقابل فجذبت رؤيتها لنفسها فأمعنت النظر فيها، بقيت وحدها في الغرفة مكتئبة...فحياتها الجديدة مبعث قلق وهم لها ، فكرت في الرجوع لبغداد وإلغاء قرارها السابق لكنها شعرت بالحرج من فكرتها وعدم سيطرتها على مشاعرها وحنينها...وفجأة فرحت بالخطوة الجريئة وتجربتها التي قد تبدو لها فريدة من نوعها...قبل أن تفرغ حقيبة ثيابها أحكمت إغلاق الباب، والغرفة محكمة وغير نافذة فإسدال الستائر وإغلاق الشبابيك مبعث فرح وسعادة لها رغم ذلك لم تبدل ملابسها وبدأت خائفة من شيء مجهول... مرت على ذاكرتها ممارستها الجنس مع السافل المخادع في شقته ..." كيف تجرأ على تجريدها من ملابسها وإظهار زينتها وجمالها الساحر ...! ؟وقع تفكيرها على نقطة معينة من هذه العلاقة وهو اليوم الذي قبلها السافل ولم يتوان بل أسرع في نزع ثيابها قطعة قطعة وهي لم تمانع ولم تقاوم واستسلمت لأمره ونزعاته الشهوانية" فاحتملت آلام الاتصال الجنسي لأول مرة في حياة فتاة بمثل عمرها وارتجفت من رؤيتها للدم وتمزيق غشاء بكارتها...!ولم تفسد على السافل لذته واحتملت الآلام رغم معاودة الاتصال بها مرتين في ذلك اليوم المشؤوم فلم يتركها حتى نال مبتغاه بفعلته الخسيسة...

تأثرت بالموقف وتبين من احمرار وجهها شعورها بالخزي والعار وألقت بنفسها على السرير مهمومة حزينة وهي تريد أن تصرخ لما أصابها وكرهها

حتى لجسدها المغري والذي كان ولازال علامة مُخزية وخطراً دائماً يحوم حواليها كلما نظر إليها الرجال...!!

سمعت صوت الباب وهبت واقفة من تصادم حالتها النفسية مع طرق الباب، فمسحت الدموع على خديها ووضعت معطفها جانبا ، وبعد برهة فتحت الباب فوجدت امرأة صلاح واقفة وحاملة على يديها طبقا من الطعام وتكلمت بلغة غير مفهومة، ولكن من قسمات وجهها البشوش فهمت ترحابها بها وتقديم واجب الضيافة والاستقبال لها ،وقفت جانبا حتى دخلت "هيران" ووضعت الطبق أمامها ثم ما برحت الفتاة من مكانها حتى رجعت بطبق صغير واصطحبت معها زوجها وعبر صلاح عن فرحة زوجته بقدومها... وتركاها حتى تتناول أول وجبة طعام وشراب في بيتهما...

اندهشت الفتاة من ترتيب الطعام " ووجدت معدة الطعام ماهرة في طبخها وترتيبها ورأت الصحون نظيفة والترتيبات اللازمة موجودة في الطبق المقدم لها ...رغم تعبها وكدها في الطريق لم تشعر بالجوع لكنها حاولت أن تأكل كي لا تشعر بالحرج أمامهما إذا ما ارجع الطعام كما قُدِم...

وبعد الفراغ من الأكل اليسير أخذت الطبق والصحون وخرجت من الغرفة ووضعتها في المطبخ وشربت الشاي معهما لتألف الوضع وتتمرن على الاختلاط بأُناس ليسوا من بني جلدتها...!

فعائلة صلاح من العملاء المخلصين للحزب...ومنذ أن غادر قريته اتصل بالحزب وقدم خدمات كثيرة لهم بغية تأمين معيشته واعفائه من الخدمة العسكرية...وكان موضع ثقة مسؤول المنظمة وأعضائه ...وبيته محل ارتياد رؤساء الشعب والرفاق الحزبيين وذلك بشكل سري ودون علم أحد...

ولحسن حظهما لم يرزقا بالأطفال وبقي حاله مع هيران ملائما مع عمله كعميل من الفئة البخسة والنذلة...فليس لخدماته حدود ولم يكن الناس يعرفون عمله بالضبط ، ويوميا يذهب لدكانه الصغير ويجلب علب السجائر والمواد المعلبة ويغلق دكانه ولا أحد يدرك عمله سوى رجال المنظمة والأمن...وفي منظره وهيئته علامات تُبعد الشبهة عنه كعميلٍ سريٍ للمنظمة والأمن...ومع انسجامه مع عمله حاول حصر علاقاته الإجتماعية في إطار ضيق ومحدود، ولم يتصل بأخواته ولا إخوانه ولا أحد من افراد عائلته وأقربائه، بل قطع صلاته بهم وتشاجر معهم بدافع المصلحة وابعادهم عن نفسه وزوجته المعروفة بالعاهرة من قبل المنظمة ورئيسها...

ولسيرة الزوجين وتشويه مسيرتهما قصص تقف بالمرء وتحيره فعلاقتهما بدأت بالحب لكن الحب ولت بلا رجعة، وحل محله حب إشباع الغريزة الجشعة ، وكان لصلاح دور هام في إفساد أخلاق زوجته وتقديمها على طبق من ذهب لمسؤول المنظمة... وما لبثت المرأة الشريفة كثيرا حتى صارت عاهرة ولم ير زوجها مانعا في ذلك ومارست الجنس وبغائها مع رجال كثر بطريقتها الخاصة دون أن تكشف عن هويتها الحقيقية، وفي كل مرة تلبس لباسا وتتعرف على رجال جُدد من أصحاب محلات الجواهر والملابس الفاخرة وتحمل اسما جديدا...

مرت الأيام ولم يعرف أحد بما يفعله صلاح وزوجته بالشكل المباشر وارتاب الناس من شخصيتهما المجهولة، وحرصهما التستر وراء أشياء وأفعال غامضة ، فلم تكن المرأة تتفوه حول عملها لأية امرأة صديقة أو جارة لها مهما كانت قريبة منها...وظلّلت الرجال بغية إبعادهم عن بيتها

وكانت تمارس الجنس والهوى معهم وتطل عليهم كالشبح وتغيب دون أثر أو سابق إنذار...

وقعت الفتاة البريئة في بيت موبوء بالفساد ولم تدر شيئاً عن نفسية الزوجين وعملهما ، وهي تحمل نظرية الحزب المشين وقائده المغرور ، لم تكن لتفكر إلا بالهروب من الواقع وبدأ الحياة بشكل آخر أو مغاير ، ولعل هجران الماضي بهذا الشكل يكون واقعة خير أو شؤم لا يُحْمَد عقباها ، ومهما كانت العواقب فهي الآن بعيدة عن بغداد ومخلفات علاقتها الفاشلة...

ولأول مرة في تلك الليلة أحست بحريتها الحقيقية، واختيارها لأرادتها خير دليل على خُطاها الجريئة ، شغلّت التلفاز الصغير وسمعت أغنية حزينة وفاضت عيناها بالدموع ، ومع كل مقطع من الأُغنية تذرف عيناها ومرت على مخيلتها إحدى ذكرياتها مع المخادع السافل... بعد انتهاء الأغنية لم ترغب في مشاهدة التلفاز وتذكرت عدم تغيير ملابسها منذ وصولها، فتأكدت من إغلاق باب غرفتها وإسدال الستائر ثم نزعت لباسها ورأت منظرها أجمل بكثير من أي وقت آخر " فالقامة المستقيمة والرشيقة والنهدان الطالعان، وبياض بشرتها وشعرها الذهبي أعطتها قوة ساحرة، وبقيت عارية وهي تدبر وتقبل على المرآة وتنظر لنفسها عن قريب وبعيد فجمالها أعطاها شجاعة وجرأة وقوة لإذلال الرجال وعدم المبالاة بهم...

تعبت من النظر لنفسها وبهدوء تام ورويدا رويدا لبست ثيابها ثم ألقت بجسدها في أحضان السرير وهي ترى نفسها ملكة جالسة لا تبالي بأحد ومعاشر الرجال خاضعون لها، وهي تصدر الأوامر وهم يتسابقون لتنفيذها، ضحكت من سخافة تفكيرها وبلهفة أغلقت عينيها ونامت بهدوء...

3

قبل بزوغ أشعة الشمس على المدينة استيقظت الفتاة من نومها وكانت بوادر الراحة والاسترخاء والطمأنينة ماثلة على وجهها... قضت ليلة هادئة بعيدة عن ديارها وأهلها...فبدايات التجربة الذاتية أعطتها دافعا قويا للمضي قدما في طريقها...لم يحل موعد ذهابها بعد" فقد أكملت كافة استعداداتها لاستقبال مدرستها وأصحابها الجدد وتلامذةٍ قد يكونون من مستويات مختلفة ونفسيات مُتَعَددة...وما كان اهتمامها ينصب على شيء آخر سوى الرغبة في تغيير كل شيء في حياتها " وأعطت أولوية خاصة من أجل نيل مرادها...فغيَّرَت كافة ملابسها وحتى شكلها من حيث المظهر...بدت عليها علامات الجمال الحقيقي واستغراب كل من يراها للوهلة الأولى...فالجمال والأناقة يرتسمان على وجهها وتبدو كملكة تطل على عرش الجمال وهي مستغنية عن من يدور حولها...

ولم تكن بحاجة لاستصحاب أحد" إذ أن تعليمات الحزب تفرض عليها استئجار سيارة والذهاب دون وساطة أو رفقة من أحد...وما كانت تلك الفتاة الخجولة والمحافظة التي عرفت من قبل الأهل والأصدقاء، ففي اليوم الأول عاشت حياة أخرى مختلفة عن سابقتها...حياة مليئة بالتجربة وعدم المبالاة

بـالعوائق الطارئـة...فهـدفها كـان نبـيلاً وجمـيلاً في الحيـاة " إذ أن التعلـيم والجهـد والـسهر بغيـة رفـع مـستويات الطـلاب والتلاميـذ كانـت مـن أسمـى أمانيها المرجوة، لهذا لم تكن لتبالي بشيء آخر ...ومع ذلك اهتمت بالثقافة الذاتيــة ورفــع مــستواها منــذ أن عرفــت نفــسها فــسلكت لنفــسها نهجــا حراً...بدأت بدراسة الشعر العربي ووجدت فيه حلاوة ورقة وإحساسا جميلا، وبدا عليها أثر الشعراء ، ثم بعد ذلك درست الفلـسفة والروايـات الرومانـسية والجوانب الأخرى من الأدب والتأريخ مـن هنـا وهنـاك، ممـا دفـع بهـا لرفـع مستواها وإعطائها نظرة ثاقبة وفهم عميق ودرايـة لمـا يجـري علـى الـسطح العالمي...إلا أن الشيء الذي لم تحب الخوض فيه هو الحـزب وقائـده، فلـم تحب الخوض في تفسير الحزب وما يجري على الساحة العراقية، خافـت مـن شيء يكمن وراء الأحداث الجارية ، هل إن وضع البلد يمر بشكل صحيح أم أن بدايات السقوط آيلة لا محالة...والشيء المزعج بالنـسبة لهـا خوفهـا مـن التفكير في الأحداث وكينونتها بشكل منطقي، وترديد أقوال القائـد وسـدنته من الحزبيين ورفـاق المنظمـة... ومجـرد الـتفكير بهيكليـة الحـزب والقداسـة الكاريزمية محل استغراب وذهول دائم...لاشيء أعلى مـن الإنـسان ولاشـيء يستحق التقديس في الحياة سوى المبادئ الجميلة التي تبادل الإنسان نفـس الشعور والإحساس...فهاهي صدقت مع وغد وسافل مخادع وهو بالعكس لم يتعامل معها بنفس الشكل ، وحطَّم فؤادها وجرح مشاعرها بـشكل يؤلمهـا كل لحظة من لحظاتها... "آه منك أيهـا الوغـد الـسافل انـك تمثـل جرثومـة خبيثة ومعاشر الشهوة من الرجال، وتتحرك فيـك الغريـزة وحـب إشـباعها " مثل الحيوانات الضارية والطيور الجارحة...إن المجتمـع نـتن بأمثالـك وأنـت

مجرد من الإحساس والشعور بـالآخرين " فقلبـك ميـت ومبتـور مـن الجمـال أصلا...فيا حسرتا علـى لحظـاتي معـك...كـم مـن الاحـساس الجميـل كنـت أحمله بين جنباتي لك ، كنت أهواك وأموت فيك...وأعشق كل شيء يتعلـق بك حتى الهواء الذي كنت أتنفسه فأنا كنت أعشقه...نظراتـك كانـت مبعـث أمل وحب لا تنطفئ أبدا " رأيت فيك فارس أحلامي وأمنية فـؤادي...بيـد أن الفارس لم يكن فارسي، وحل محل الحب المأسـاة والآلام، وصـار الأمـل سرابا ووهما قاتلاً وشبحا يلوح في الآفاق بين حـين وآخـر...لِـمَ التفكـر فيـك أيهـا الـسافل ، هـل لازلـتُ مُغرمـة بـك...أم أنـني أحـاول دفنـك في مقـبرة النسيان.. لا... لا أبدا فأنت مجـرد ذكـرى أليمـة وقاتـل إحـساسي وجـارح مشاعري...سوى ذلـك أنـت لـست شـيئاً تـرد في بـالي...فتركـت لـك الحيـاة والمتعــة مــن بابهــا الأوســع لتركــض وراء شــهواتك الدنيئــة ورغباتــك الحيوانية...! !آه إلى من أشكو حالي لازلـتَ كالظـل القـاتم والـشبح المـارق تلوح لي من بعيد وتفسد علي حياتي " إن الجرح الذي خلفته أعمـق بكـثير مما أتصوره ، لازال كما هو منذ أن عرفت حقيقـة علاقـتي معـك ، وكـوني بالنــسبة لــك ســاقطة رخيــصة أُلبِــي رغباتــك وقتمــا تــشاء وحيثمــا أردت...! !".

كانت هذه الأفكار تزعجها وتراود ذاكرتها منـذ أن ركبـت التاكـسي والى أن وصلت لبـاب المدرسـة...فوقفـت أمـام بنايـة المدرسـة وبخطـوات ثابتـة اقتربت منها وما لبثت أن عرَّفت بنفسها، وفي لحظات سريعة عرَّفتها المديرة بالجميع، وكانت محل إعجـاب الجميـع وهـم ينظـرون إلى مظهرهـا الخـارجي وجمالها بدهشة واعجاب فريد...

ومنذ اليوم الأول من مزاولة مهنتها أثبتت جدارتها، وأظهرت أدبها الرفيع...لم تكن من الطبقة التي دائما كان الحزب يُعول عليهن لنشر ثقافة الحزب حسب قولهم...بل أدبها لازم كل كيانها وتصرفاتها حتى لم يتخيل أحد أن صاحبة هذا الجمال تكون بهذا المستوى من الأدب والتوازن في التعامل مع الآخرين... فحرصت على التحلي بالآداب الرفيعة وإظهار صورة جميلة لفتاة ترعرعت وسط عائلة شريفة ومحافظة على الآداب الاجتماعية والدينية...وفي اليوم الأول حاولت التعرف على زملائها الجدد ، ورأت فيهم عالما خاصا ورفقاء يختلفون عن سابقاتهم ...لم تحس تجاههم بشيء أو نقطة تجذب انتباهها، إلا أن من بينهم وجدت رفيقا أو صاحبا قد تكون لنظراته معنى خاص ورسالة غير مألوفة عند الآخرين...أهملت نظراته العاطفية ولم تبال بها فاعتبرتها موضع شؤم ومحل هم وحزن دائم...وحبب إليها التعرف على التلاميذ" ونظراتها إليهم تحمل حبا لا حدود له...

واختارت لغتها لبناء جسر المحبة بينها وبينهم...ودخلت مع معلم آخر الصف وجلست في مؤخرة الصف، وسمعت شرح المعلم لأحد مواضيع الأدب ، بقيت صامتة وكلها حس والتلاميذ يشاركون بالسؤال والاستفسار أحيانا...وبعد الانتهاء من شرح الموضوع طلب المعلم مشاركتها ولو ببعض الكلمات الرمزية...

لم تحس بالحرج فتدريس اللغة من أمنياتها المحببة على قلبها ، ووجدت تلاميذها الجدد محل إعجابها، ووقفت بينهم مقدمة ترحيبها بالتعرُّف عليهم وتدريسها اللغة العربية لهم ، وتكلمت بلغة فصيحة ونالت إعجابهم واندهاشهم ، ولم يكن معلمو اللغة العربية يتكلمون بالعربية كمعلمي

الإنكليزية مثلا، ومن دواعي سرورها تبيان فوائد التكلم بالعربية والبحث عن المفردات الجميلة وجمعها في دفتر حتى يتسنى لهم تعلُّم العربية من أوسع أبوابها...

بقي التلامذة صامتين ومنصتين لمعلمتهم الجديدة ووجوههم تملؤها رضاً وتآلفا غير متوقع من قبل المعلم الآخر...وبعد أن انتهت من مشاركتها اليسيرة قدم التلامذة ترحيبهم بها رغم عدم معرفتهم للغة العربية بالشكل المطلوب والجيد... وبهذه الكلمات المُتَقَطِعة وغير الفصيحة ولا المفهومة أحيانا شعرت الفتاة بالحب الذي تكنه لهم ، ورأتهم براعم المستقبل ونواتها المخلصين...قضت بينهم لحظات جميلة ، ولهذه اللحظات بريقها الخاص على قلبها المكتئب وسط التجربة المرة التي مرت بها ...خرجت من الصف مرتاحة البال وتغمر قلبها السعادة ...فهمت رسالتها التعليمية في الحياة ، وحبها للإنسان متغاضية عن نظرات الحزب وقادته وابراز التعصب القومي في هذا المضمار...لم تؤمن في يوم من الأيام بهذه النظرية التي هي من مخلفات العهد الاستعماري ، فحبها لقومها أعطها دفعة هائلة أو شحنة حنان تجاه الأقوام الأخرى، فهم من سلالة الإنسان الكريم ولم تكن للصبغة الحزبية أثر على تفكيرها...وكرهها السابق تجاه الأكراد انبعث من منظور الحزب، إذ أن الحزب يصفهم بالمتخلفين وينسب إليهم التمرد والعصيان على الحضارة والمدنية... ومجرد التفكير في هذه المسألة عندها تفتح باب التشكيك من جديد حول مفاهيم الحزب وقادته...وقفت عند هذا الحد مكتفية بحبها لمهنتها ورسالتها وتلاميذها وبدء حياة قد لاتخلو من مصاعب وفوائد لم تكن لتجنيها لولا الاختلاط والعيش بين قوم آخر...

غمرت السعادة قلبها عندما جلست في غرفة المعلمين واستمعت لحديثهم وهي تريد أن تفهم لغتهم وتتعلم الكوردية بأسرع وقت ممكن...كانت صامتة ومصغية عندما اقترب منها شاهزاد المعلم الذي أعجب بها منذ أن رآها، وبصوت خافض قال لها:

ـــ تشرفت بمعرفتك...أرجو أن تعجبك المدرسة ومدينتنا...

شعرت معه بارتياح بعد أن سمعت من لغته إتقانه للعربية بشكل جيد وقالت بصوت رنان يتخللها دلال ساحر:

ـ شكرا لك ...تشرفت بمعرفتكم ...في الحقيقة كل شيء هنا جميل ورائع...وبالمناسبة تعجبني فصاحتك وإتقانك للعربية...

كان شاهزاد معلما ذكيا ولولا الظروف الصعبة لكان له شأن آخر ، إذ تربى وسط المأساة وتوفي والده وهو في السادسة من عمره ، وتجرع البؤس والمرارة طيلة حياته ولم يستسلم للواقع وقاوم كافة العقبات إلى أن صار معلما ولم ينعم بالراحة طيلة حياته وكثيراً ما كان يعمل بالليل ليكمل تعليمه ويلبي طلبات عائلته... وسِرُ معرفته للعربية يرجع لجهده المتواصل واجهاده في سبيل ذلك، ورغم شعوره بالخجل بين أقرانه وزملائه لم يتمالك نفسه في الحديث مع الفتاة، وهو لم يفهم تقربه منها ، ربما كان لتلك الخطوة دافع آخر غير عاطفي أو إظهار لغته والإلمام بها بشكل لا بأس به...أو لأن الفتاة جميلة وجذابة ومحل إعجاب الناظر ...ولكن الاحتمال الأخير لم يكن ينطبق على حاله وأدبه" فتوجد فتيات أجمل منها بكثير وهو لم يرغب بالحديث معهنّ حتى بعد مرور عدة أشهر...

ترك إحساسه ودوافعه جانبا واقترب منها أكثر وسألها:

ـ أين أهلك ...

تذكرت عائلتها حينما سألها ولم تأل جهدا وقالت:

ـــ في بغداد...

كانت لردها وقع خاص على نفس شاهزاد، ولبريق عينها معنى خاص ودلالات قد لا تفهمه بالشكل السريع...وخاف أن يزعجها وحصر كلامه في الأماني وقال:

ـــ أتمنى أن تكوني مرتاحة في السليمانية وتكون مدينتنا محل تجربة وفائدة لك ....ويمكنك الاعتماد علي في أي شيء تحتاجينه...

كان جوابها عبارة عن كلمات قصيرة معبرة عن ارتياحها له:

ـــ شكرا جزيلاً لك ...فرصة سعيدة...

اثر ذلك بدأ المعلمون الآخرون بتوجيه أسئلة لها والخوض في مواضيع جانبية إلى أن انتهى اليوم الأول في مدرستها، ورجعت برفقة إحدى المعلمات القريبة من محل سكنها، وتعرفت على المدينة وطريقها اليومي ووقع في قلبها حب كل ما ترمز إليها من طبيعة خلابة ومناظر مدهشة ، وراحت تدون في دفتر ذكرياتها هذه الخواطر:

"بعد أن وصلت للسليمانية شعرت بثقل الخطوة التي اتخذتها...فاللحظات الأولى من وصولي كانت صعبة جداً...ككل الخطى الصعبة في حياة الإنسان...رغم بعدي عن مدينتي الجميلة الا انني سعيدة وأشعر بالراحة التامة والطمأنينة وسط أُناس غُرباء...وشعب لا أعرف لغتهم أحاول ربط صلة صداقة معهم...

أمي العزيزة...افتقدك ولكن قلبي يتوق إليك وصورتك دائما في مخيلتي لا تفارقني حتى أثناء نومي...

أخي العزيز... أختاي الغاليتان... إن البعد المكاني ليس له تأثير على الحب المكنون في قلبي تجاهكم ...صدقوني أحبكم من أعماق قلبي...وأشعر برغبة جارفة لرؤيتكم أحب أن اعبر عن مشاعري وأنا ماضية في طريقي لكسر حواجز الماضي ومخلفاته المدمرة...أشعر بالحياة من جديد...فالسماء والأرض يولدان من جديد وأنا بينهما مولودة...بالأمس كنت احتضر وأتألم لفراق روح الماضي، واليوم أشعر بولادتي إثر هذه الخطوة التي تخطيتها...لا تلوماني على أقوالي لست نادمة على حياتي بينكم وذكرياتي الجميلة... بل على العكس فالماضي يحل معي أينما كنت، وللغربة مدلولها ووقعها الخاص على قلب الغريب ...أشعر بنبضات الحياة بينهم...أحن للماضي دون المآسي والآلام... قلبي تغمره سعادة لا أعرف مبعثها سوى أنني سعيدة وفرحة ...يمكن أن يكون لليوم الأول تأثير على سعادتي " لكنه بالرغم من ذلك ليس بالسبب الأوحد لسعادتي...لا أُبالي بذلك...المهم أنني سعيدة في هذه المدينة الجميلة...

* * *

لم تمر على كتابة بعض خواطرها وذكرياتها لليوم الأول من دوامها بالمدرسة إلا لحظات قليلة" إذ سمعت طرق باب غرفتها ونهضت مسرعة من مكانها وفتحت الباب ورأت صلاح وزوجته يدعوانها للنزهة في المدينة والذهاب للمتنزه المعروف بسرجنار...

وافقت على دعوتهما رغم تعبها واندهاشها للأحداث المهمة والمسرعة في حياتها...خرجت بصحبتهما وذهبوا لذلك المتنزه المشهور في المدينة، بالرغم من جمال المتنزه والمكان فلم تظهر عليها علامات وآثار الاهتمام الحكومي والعمراني...ووجدتها شبه خالية من الزوار...وحملت تلك العلامة في نفسها ولم تسأل صلاح عن السبب...فكَّرت هذه المرة أيضا دون وساطة حزبية، وتولَّد نوع من الإحساس الغريب في كيانها وقلبها، لم تر البشاشة والأمل على الوجوه التي صادفتها في الطريق ، وفجأة تذكرت مأساتها النفسية والذاتية وتجربتها الفاشلة...وما كانت لتحتمل الألم والمعاناة من جديد ، شغلت نفسها لتكابد ألم التفكر بالناس ومعاناتهم، حلقت بنظراتها للزوجين فرأتهما غير منسجمين ودارت بنظراتها فرَأت بركة ماء جميلة ومكان يبعث النفس على الإحياء والتجدد والنشاط، ولكن خلو المكان من الزوار حملها على الاكتئاب والشعور بنوع من اليأس وفقدان الأمل "يا للحياة ...كلُ جمال يفقد حيويته بسرعة ويحمل شعاع الذبول وعدم البقاء...ما سر هذه التعاسة ...؟! هل ان للحياة وجهين مختلفين لايراها الناظر إلا بعد الإمعان أو التجربة الذاتية...؟! أم للنفس تفسير خاص على الوجود والمناظر ؟لابُد للجمال من صلة وثيقة بالنفس والرؤى الداخلية للإنسان...وكل إنسان يرى المناظر والحياة من وجهة نظره وتجربته

الذاتية...يا ليتني لم أتعلم أصلاً ولم أدخل المدرسة ، حينها كنت أعيش مثل أمي مرتاحة البال من هذه الجوانب، وليتني عشت في أُمية وحياة لا تحمل معنىً سوى المكوث في إطار محدود وتحمل طابعا بدائياً لا تتغير ولا تتبدل بتغير الزمان والمكان والعالم من جوانبه المتعددة... لا... إن الأزمة لا تكمن وراء ذلك بل لها جذور أعمق بكثير من هذا التفكير الانهزامي والرضوخ تحت وطأة الفشل والتفكير العبثي للحياة...فالإنسان مهما واجه من مشاكل وآلام جمة لابد له من كسر حواجز التخلف الموروث والنهوض بالنفس من كبوتها وعثرتها...وهل السعادة في الجهل وعدم التعلم؟ حتى إن أمي لم تكن مرتاحة البال أبدا...فهي تعاني من الأمية ولم أرها ضاحكة منذ وفاة والدي...رغم رضاها التام بالقدر الإلهي واستسلامها للأمر الواقع لكنها دائما تعاني من صراع مجهول في داخلها ، والحزن علامة مرئية على وجهها وأحيانا تعبر عنها بالبكاء والنواح، ولا أظن أن موت والدي سبب هذا الحزن العميق في نفسها...ومهما اختلفت الرؤى للمناظر والمشاهد فان الحساسية الزائدة في نفسي جعلتني دائما أتألم وأشعر بالحزن ونوع من اليأس حتى من أجمل المناظر... وقراءتها بالنظرة العبثية والشتائم بدلاً من إظهار جمال الكون وخضرتها الجذابة والمناظر الساحرة للطبيعة الخلابة...نفسي دائما محطمة ولا أستطيع التفكر بالشكل السليم...يالك من فتاة بائسة...مهما حاولت فلن تخرجي من دائرة المعاناة والشعور بالإحباط والفشل...".

سمعت صوت هيران وهي تخاطبها بلهجة ركيكة:

ـــ جميلة ...مو...؟!!

ارتـسمت علامـات الـضحك علـى وجههـا لكنهـا لم تبـدها " بـل بنظـرة واعجاب ردت:

ـ جميلة جداً...المنظر رائع وساحر...

تفادت التكلم عن الإهمال فالمرأة لا تفهـم كلامهـا وصـلاح عميـل سـري للمنظمة فيحتمل أن يكتب تقريرا عنها...قبل أن تتكلم الفتاة قال صلاح:

ـــ يوجد بكوردستان أماكن أجمل بكثير من هذا المتنزه...ولكن بـسبب الظروف لا نستطيع أن نذهب إليها في الوقت الراهن...

فهمت مراده وما يخفيـه مـن كلامـه ، ولم تنبـت ببنـت شـفة كتأييـد أو تعقيب ...وبعد قـضاء عـدة سـاعات رجعـوا مـن سـرجنار وتنـاولوا العـشاء بمطعم خارج البيت، وأصرت الفتاة على دفع الحساب كرد جميـل للـضيافة وخدمات الزوجين لأرضائها ، وفرحا بذلك وإن أبديا معارضة سطحية...

وقبل أن يحل الظلام وصلوا البيت ودخل كل طرف الجانـب المخـصص له وأوت الفتـاة لغرفتهـا مـشدودة الأعـصاب ومتعبـة البـدن... وفي مخيلتهـا مئات الأسئلة عن حياتها الجديدة وتجربتها الصعبة...وفتحت دفتر ذكرياتها وكتبت: "إنني في حالة بائسة ...لست سعيدة كمـا كنـت عنـدما رجعـت مـن المدرسة...لا أدري إلى متى أحتمل معاناة الوحدة والغربة...مهما حاولت من إخفـاء الانهـزام والـشعور بالإحبـاط فلـن اسـتطع...إن الوحـدة شـيء ممـل وخاصة عندما يكون المرء مقدما على وحدة حقيقية لا يُرى فيها بريق أمـل منبعث من جوانب الأيام والليالي...

مـاذا أفعـل في هـذه الظلمـة الدامـسة...أيـن أجـد النـور؟ قـد لا أجـدها أبدا...لأن اليأس دائما يظهر لي قبل الأمل " كم أنا تعيـسة...لمـاذا أحـاول

دائما العيش على الأمل رغم فقداني لها منـذ أن غـدر بـي الـسافل وتـركني هكذا...! ؟ لست أدري للوحدة تأثير على نفسيتي وخلق نوع من الإنهزاميـة عندي...! ؟ لست مهتمة بتفسير الأسباب لما أشعر بـه مـن الآلام والمعانـاة الذاتية..."المهم أنني غير سعيدة وأتمنى الموت في أية لحظة...

أمي العزيزة ...احتاج لحنانك وحبك وحضنك الدافئ ، رغـم بعـدي عنـك ووجودي في مدينة غريبة فأنني احتاج إليك، وأتـوق لحنانـك وحبـك ولحظـة من الغفوة والسنة في حضنك...

لازلت أعيش على ذكرى الماضي والطفولـة...في خـضم المعانـاة وتجربـة الغربة أتذكر أيام الطفولة والسهر علي عندما كنت أمرض وتـسهرين .. ولا تبالين بالكد والتعب ومكابدة النوم...فأنت لي أملي الوحيـد وملجـأي وأراك الآن مستيقظة وتفكرين بـي دائمـا...شـكرا لـك يـا أعـز انـسانة ومخلوقـة في قلبي...أنا ممتنة لك ...أخاف أن يفوت الـزمن ولا أصـحى مـن هـذه الكبـوة العارضة لأرد لك الجميل وأشـفي جراحاتـك العميقـة بفقـدان والـدي وتحمـل همومنا...لا أحتمل أكثر من ذلك...ليلة هادئـة " ونومـة هنيئـة، وتـصبحين على ألف خير...".

4

لم تكـن لتـنعم بالهـدوء والاسـتقرار في الـسليمانية ، إثـر إغـلاق دفـتر ذكرياتها ونومها بقليل " إذ صحت علـى صـوت إطـلاق نـار ودوي انفجـارات هائلة...هزت شباك الغرفة وشعرت بخوف شـديد وظنـت نهايـة حياتهـا...مـا الذي جرَّها لهذا المصير المحتوم والخطر المحدق بها من كل الجوانب... أمـا كان حرياً بها العيش بهدوء في مدينتها وسط أحضان العائلة الحنونة؟!تُرى ما طعم الموت وشكله ؟

تذكرت قول الشاعر بسرعة:

وطعمُ الموت في أمرٍ عظيم

كطعم الموت في أمرٍ حقير

يا للعظمة...!! هروبها من فضيحة ومحاولتها سترها أدت الى أن تلاقـي مصيراً كهذا، وتموت بعيداً عن عائلتها ومـدينتها العزيـزة... وأيـة عظمـة أن تلاقي الموت في سبيل ستر الفضيحة وإرضـاءً لرغبـات الحـزب اللعـين..إنـه جنون وهوس من البداية وحتى النهاية " تهرب من شيء تافه لتلاقي حتفها في مدينة نائية بعيدة حتى عن أقرب القصبات والقرى العربية...وإذا ما لقـت حتفها بأية وسيلة وشكل تنقل جثتها لبغداد...؟! وكيف تُعَول علـى موتهـا من قبل الأهل أو السلطات ...لابُد أنها تُسمى شهيدة المبـادئ الـسامية...!

حالها كحال الجنود أو رُفقاء الحزب عندما يُقتلون ويُنقل جثمانهم على سطح سيارة ويلف صندوق الجثة بعلم العراق، وتسلم الجثة إلى أقرب مخفر في الحي ثم تُعرف على هويتها بسرعة وفي غضون يوم أو يومين تُسلّم الجثة لأهلها...تُرى ما مدى وقع المُصيبة على أمها أو أختيها وأخيها ...! ؟ يُحل كارثة بالبيت والأُم تفقد صوابها ويمكن أن تموت فيها ...عذبتها بالهجرة والبُعد والآن تُعذبها وتسبب لها ألم الموت وتجديد ذكرى فقدان الوالد...كم هي أنانية وعنيدة ، لوبقيت بجوار الأُم ومكثت بلا زواج سترت فضيحتها وبقيت هكذا طيلة حياتها دون أن يعلم أحد بحالها ، ولكن هروبها لم يكن من أجل الزواج أو البحث عن حبيب آخر...إن حالة الحُزن والشعور بالفشل من التجربة العاطفية قذفت بها في هذا الطريق لتلاقي أسوأ مصير في عجالة غير مسبوقة...غداً تُنقل جثتها فوراً دون تأخير إلى بغداد، وتوارى الثرى بجوار الوالد، وتكون نسياً منسياً، كأنها لم تكن لتعيش " بل وغير موجودة أصلاً...

كانت تُفكر بالموت وهي منزوية في ركن الغرفة وتستر جسدها ببطانية " إذ سمعت صوت الباب وصلاح يناديها...هبت لفتح الباب دون التفكر بملابسها ورأت صلاح يلح عليها أن تأتي للغرفة الخلفية للبيت ريثما يهدأ الوضع ، فهرولت مُسرعة ودخلت غرفة هيران وهي صامتة ومرسوم على جبينها علامات الخوف الحقيقي...

ولم تكن حال هيران وصلاح بهذا الشكل فهما معتادان على أسوأ من ذلك" فحضنتها هيران وسترت جسدها الشبه عاري بيديها فهي كانت نائمة لحظة وقوع الانفجارات واطلاق النار " وهي في ملابس النوم ، رأى الزوجان

أجمل صورة لفتاة لم تناهز عشرين سنة فهي أشبه بملكات الجمال وكل قطعة من جسمها محل إعجاب الزوجين ، وبعد انتهاء إطلاق النار وتهدئة الوضع أفاقت الفتاة من حالة الخوف وشعرت بحرج كبير،وبسرعة وخجل مفضح رجعت لغرفتها وهي تلفظ كلمات غير مفهومة، وضحك الزوجان منها، ونظرا لبعضهما معجبين بجسمها وبياض بشرتها وكل قطعة مثل ملكة البحر أو حواري الجنة أو أية مخلوقة جميلة وجذابة ...

وفي الصباح خرجت من البيت قبل دوامها وهي لا تريد أن ترى الزوجين " لما رأياه من جسدها وجمالها المكنون تحت لباسها الظاهر...وظلت تحت تأثير الحادث وفي الاستراحات ما بين الدروس يُذكر حالها وترسم على وجهها الخجل وعدم الرغبة بالرجوع للبيت...وحتى بدت عليها علامات التوتر في الصفوف التي تدرسهم اللغة العربية ...وكان أقرب المعلمين إليها شهزاد وهي بهذه الصورة تبدو أمامهم ، فلم يتركها شهزاد واقترب منها وبلطف وحنان قال لها:

ـ صباح الخير...أراك منزعجة...هل أفهم من ذلك أنك غير مرتاحة بيننا...بالأمس أبرمنا عقد الصداقة ، لماذا أنت بعيدة وتبدين حزينة...

آسف للتدخل ولكننا نرغب بأن نراك سعيدة كما كنا سعداء بمعرفتك ووجودك معنا...

نظرت إليه بشكل مختلف، وهي تحب أن تشارك معه الحديث قبل أن تتلفظ بالرد عليه قال شهزاد من جديد:

ـ صديقتي العزيزة...أو أختي ...آنسة حنان...أية تسميات تُحبين أن أناديك بها...لا تأخذي عليَّ فأنا غير معتاد على الحديث حتى مع الزميلات

الكورديات ، ولكن أقـرأ في عينيـك الغـاز وأحاسـيس عجيبـة...هـل أتـشرف باختيار إحدى هذه التسميات في التعامل معك؟

ضحكت هُنيهة وقالت:

ـ كيفما تريد ؟ أترك الاختيار لك...فأنا سعيدة بينكم ولكني أمرّ بحالـة نفسية طارئة يمكن أن يكون لتبديل الجو والمدينة أثر في ذلك...

+ هذا صحيح " فكـل تغـيير في الأمكنـة لـه وقـع وتـأثير علـى إحـساس الإنسان...وآسف مرة أخرى للتدخل...

نبض قلبها لرقة أسلوبه ولم تتركه يبتعد وقالت:

ـ حقاً تذكرت شيئاً...لماذا لا تساعدني على تعلم اللغة الكورديـة...فأنـا أرغب في ذلك...ومستعدة أن أتلمذ على يديك...

بدت ابتسامة باردة على وجهه وأحس بالخجل وقال:

ـ أنا مستعد لذلك...وأخذت على عاتقي تعليم الكتابة والقراءة للصفوف الأولية، ويمكنني أن أعلمك ألف باء الكوردي وبطريقة سلسة وسهلة...

نظرت إليه بعطف شديد لمـا تـأل هـذا المعلـم مـن اهتمـام وهـي تـشعر بالتقرب إليه شيئا فشيئا وقالت:

ـ متى نبدأ ؟

+ وقتما تشائين ...

ـ اليوم...

+ نعم ...سنأخذ كتاب الصف الأول ونبدأ في حديقة المدرسة...

وبعد لحظات قليلة جلسا معاً ، وقام شهزاد بأخذ الكتاب وشرح الدروس الأولية للفتاة وهي تنصت بشكل مصغ وتخطو نحو عالم الأكراد ولغتهم الشيقة...

كان لطيفاً معها، وهي تحس بذلك في قرارة نفسها وتحمل عاطفة جياشة لهذا المعلم الكوردي وما يبديه من اهتمام بها...فخافت أن ينتهي العطف تجاهه بالحب وقصة أخرى مثل سابقتها ... وفي نفس الوقت غير مستعدة للتخلي عنه وإبعاده عن حياتها ولاسيما عندما رأت فيه الجدية والاهتمام والبراءة الحقيقية في نظراته ، وعدم المبالاة بالنظر لمحاسن جسمها مثل الآخرين...ولاشك أنها محتاجة في هذه المرحلة لصديق أو صديقة تأخذ بيدها لتعلم الكوردية أو على الأقل المفردات والجمل الضرورية لتمشية أعمالها اليومية... ويمكن إعطائه إحدى هذه الأسماء وان كرهت مناداتها بالأخت" فاعتبرت الصداقة أليق بكثير من غيرها...

وقد بنيا منذ اللحظات الأُولى من جلستهما منفردين علاقة حميمة يبدوان كأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد وهما مرتاحان مع بعضهما البعض، وتعلمت الفتاة في اليوم الأول من تعليمها مفردات وألفاظ وجمل مختلفة، ويراودها شعور بالفرح والسعادة وأثناء جلوسهما معاً قالت الفتاة بصوت خافض:

ـ شكراً جزيلا لك ...حقاً إنك معلم بارع...لو استمرينا هكذا سأتمكن من فهم اللغة الكوردية بشكل جيد...

وبادل شهزاد الفتاة نفس الشعور وبالرغم من عدم استعجاله فهم حقيقة عواطفه تجاهها وقال:

ـ سأبذل كل ما بوسعي من أجل أن تتعلمي الكوردية... وأن تشعري بالسعادة بيننا...

وفي العبارة الأخيرة من كلامه نوع من الجاذبية نحوها ولكن كلاهما أخفى إعجابه بالآخر ولاسيما الفتاة ، وأحبت البقاء معه لمدة أطول ، وفي نفس الوقت أرادت الرجوع للبيت في وقت متأخر حتى لا يراها صلاح وهيران وتمحو آثار الليلة الماضية وقالت:

ـ ما رأيك أن أعزمك اليوم بعد انتهاء الدوام، ونقوم بالتجوال في المدينة؟

لم يرد شهزاد بشكل سريع بل خاف على سمعته إثر مرافقته لفتاة غريبة ، وأن يراه البعض ويكون محل تهمة الناظرين وخاصة قاصري النظر... أراد عرقلة الفكرة ولكن الفتاة بادرت بقولها:

ـ هل تخاف من مرافقتي...؟

تعثر في الجواب على سؤالها وكتم ما بنفسه وتمتم قائلاً:

ـ أبداً.....بل أقصد...

بادرت الفتاة من جديد:

ـ إذاً اتفقنا فأنت مدعو للغذاء على حسابي...

أعجب بجرأتها وأدبها في نفس الوقت، ولم يجد مناصاً من ذلك سوى الإذعان والتسليم للأمر...ولكنه أراد أن يقدم لها واجب الضيافة أولاً وقال:

ـ بشرط أن يكون على حسابي...فأنت ضيفتنا ولابد لنا من إكرام الضيف وتقديم واجب الضيافة ...

ضحكت الفتاة وقالت:

ـ ليس بيننا فرق...المهم أننا أصدقاء وأنا اعتبر هذه المدينة مثل مدينتي ، وبالمناسبة هل قرأت الأدب العربي؟

+ نعم " ولكن لم يتسن لي الوقت الكافي للخوض في غماره... وما المناسبة للسؤال ؟

ـ مجرد سؤال...ولكن أحيانا ما أتذكر أقوال الشعراء في مواطن عدة ، فحول واجب الضيافة يقول أحد الشعراء:

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته

ولم يمنعني عنه غزالٌ مُقنَّعُ

ضحكا معاً وقال شهزاد مبينا روح الفكاهة لها:

ـ لابد أن غزالته فريدة... ومن نوع خاص...! ؟

احمرت وجنتا الفتاة وقالت:

ـ لا أعلم ...يمكن...

وضحكا من جديد وقال شهزاد :

ـ إنك بارعة في حفظ أبيات الشعراء وكنوز التراث العربي...لذلك أصر على دفع الحساب بدلاً منك فقد غلبتني...

استقرت عيناها على عينيه وردت:

ـ إذن تُصر على ذلك ؟

+ نعم ...

ـ موافقة ...

* * *

خرجا معاً في منظر غير مألوف فاندهش الجميع من سرعة تـآلُف شـهزاد مع المعلمة الجديدة ، وفسروا العلاقة الفتية بأنواع شتى وبشكل لا يخلو من القـدح والجـرح في الاثـنين معـا ولاسـيما شـهزاد " المعلـم المعـروف بيـنهم بالنزاهة والعفة وعدم الرغبة في الاختلاط مع الآخرين... ومع الوقـوع موضـع اتهـام الـزملاء مـن المعلمـين والمعلمـات إلا أن خروجهمـا معـاً لم يتعثـر فـصداقتهما كانـت تحمـل طابعـاً مميـزاً عـن العلاقـات المعروفـة وسـط المجتمعات الشرقية...

وَإنهمـا أرادا بـذلك إبـراز روح التحـدي للمجتمـع وخلـق نـوع جديـد مـن التعاشر بين الأصدقاء يوصف بالبراءة وعدم الزج بهما في خانة الاتهام ...أو عدم المبالاة بكلامهم واطـلاق العنـان لـذلك ولاسـيما الفـضوليين وأصـحاب النفوس المريضة...

فدائماً يحاول ضعاف الأنفس تفـسير العلاقـات حـسب مـا تملـي علـيهم الأهواء والخلفية التربوية من بيئات مبوأة بالمرض وخاصة البيئات البدويـة والقروية...

وبدأت العلاقة بـين الـصديقين بـشكل سـليم بعيـداً عـن مـسار العلاقـات المشينة أو دوائر الفسق والفجور وما ترسمه النفوس المريـضة مـن رغبـات جارفة ونزوات شهوانية للمـرأة والرجـل حـسب معتقـداتهم المـسبقة...ولكـن لتلك العلاقة عُرى متينة لا تزعزعها العواطـف والمواقـف الطارئـة أو نظـرات الحاقدين ومرضى النفـوس مـن الجنـسين " الـذين عـانوا مـن تربيـة فاشـلة ووضع مولود تحت تأثير الواقع المتخلف أو الوضع السياسي...

وبذلك كسرا كافة القيود الاجتماعية وتناولا الطعام سوية، ثم تنزها في أرجاء المدينة، ولأول مرة بعد التجربة الفاشلة نبضت أحاسيس الفتاة من جديد وشعرت بالفرح والسرور للرفقة الطيبة لهذا الشاب المؤدب واحترامه لذاتها، وعدم جرّها لأحضان المتعة الآنية والشهوة القذرة...فتمالكت نفسها، وحبها يظهر من خلال نظراتها والحفاظ على الصداقة البريئة وعدم التخلي عنها مهما كانت الضغوطات والعقبات، والمضي قدماً في سبيل المحافظة على صداقتهما، وعدم التخلي عن بعضهما البعض فقالت الفتاة لشهزاد:

ـ لقد أدخلت السرور على قلبي من جديد ...لا أدري كيف أشكرك ؟!

وانطلاقا من الحالة النفسية لذاته ردَّ بشيء من الحرج والخجل:

ـــ إنني اعتبركِ صديقة غالية، وما فعلته شيء عادي بين الأصدقاء...شكرا لمنحي هذه الثقة الكبيرة " أتمنى أن أكون محل ثقتك دائماً...

اقتربت الفتاة منه وقالت بشيء من الجدية ونوع من الاطمئنان:

ـ كنت شبه منهارة...واليوم تجاوزت هذه المحنة وأحس بالسعادة التي فقدتها...

تأثر بالعبارة الأخيرة من كلامها وسألها:

ـ ماذا تقصدين ؟

لم تكن الفتاة متهيئة بعد لذكر الماضي له وأخرت ذلك بقولها:

ـ أمامنا وقت كاف كي نتحدث أكثر ، فلا تستعجل ، دع الأُمـور تجـري بشكل اعتيادي...

لم يعقب على كلامهـا، بـل خـاض معهـا في مواضـيع أخـرى حتـى وقـت متأخر من العصر، عادا واقتربا من البيت مشياً على الأقـدام بغيـة التعـارف واستمرار الكلام بينهما... وأحيانا ما تطرقا للمسائل العاطفية وبناء المحبة بين الأصدقاء ...وكانت هـذه العلاقـة الفتيـة مـؤثرة عليهمـا ويتخللـها إبـراز جوانب من حياتهما ولو بشكل يسير...

ولعلاقتهمـا في نظـر الفتـاة وقـع خـاص علـى قلبهـا المجـروح وتجربتهـا الفاشلة... وتبتعد عن الشعور بالحب تجاه شهزاد وهـي تريـد لهـذه العلاقـة منحىً آخر غير مسبوق في تجربتها السابقة...

وفي هذا اليوم تبين للفتاة بوادر الأزمة السياسية والمعاناة التي يكابـدها الشعب الكوردي ، وفهمت لب القضية وأصلها من جذورها...فتفسير الحزب بـات علـى مهـب الـريح في نظرهـا وبـدأت بالتـشكيك نحـو زيـف أقـوالهم وتصريحاتهم الكاذبة، ولم تعد تُخْفَ علـى فتـاة تبحـث عـن الحقيقـة وتريـد الوصول إلى لُب القضية الشائكة...وكسرت حاجز الخوف من التفكـر بـشكل حُـر " بعيـداً عـن زبانيـة النظـام وجنـده المنتـشرين في بقاعـات العـراق بأسره...ولصحة تفكيرها طعم خاص ومجازفـة لا يُقـدم عليهـا إلا شـجاع أو جريء الخطى وصاحب همة عالية...

رُبما تحمل الأيـام القادمـة الكـثير مـن الأحـداث والوقـائع الـتي لا تحمـد عقباه، وتكون حياة الفتاة على شفا حفرة من الهلاك ومصير مجهول...

إنَّ للأحداث مدارها الخاص فلتتركها تجري حسب منوالها ولا تشحذ النفس لها من الآن وتتوقع أشياء وحوادث غير واقعة...

هكذا كان تفكيرها ، وهي جالسة في غرفتها ولا تأبه لأي شيء سوى الإحساس الفتي وشعورها بالسعادة التي تغمر قلبها جراء علاقتها مع الشاب الكوردي...

5

الجمال الفاتن ومحاسن الجسد التي رآها في الليلة الفائتة دفعت بصلاح للبوح بها أمام مسؤول المنظمة، وذكر كل ما حدث للفتاة وخروجها من الغرفة شبه عارية، ووصفه للنهدين وكل قطعة من الجسد بشكل يبرز شعرات جسم المسؤول وتسيل لعابه من وصف العميل لها...!

فكثيرا ما ينقل الحزب فتيات من بغداد أو محافظات أخرى ولكن لم ير أو يسمع حول جمال إحداهن بقدر ما سمع عن الفتاة البغدادية...إنَّها ستكون محل متعة وليالي حمراء تحيى بشكل سري في بيت صلاح أو أحد البيوتات المتعاونة مع الحزب ...

جَنَّ المسؤول للفتاة وتساءل نفسه مرات عدة عن سبب إهماله لها...!؟؟ وسُرعان ما فتح ملفها فوجده ملفاً نظيفاً وخاليا من العلامات التي غالبا ما كانت توضع من قبل الحزب للساقطات أو عديمات الأخلاق...حزن لنصاعة ملفها ورغم ذلك لم يفقد الأمل مطلقاً، فكر في دراسة جوانب من شخصيتها فقرأ الملف من جديد بإمعان، ووجد الفتاة مثقفة وداعية لمبادئ الحزب وملفها خال من العصيان أو شيء يشوبه...فكر ملياً وقرر طلب المساعدة من هيران زوجة صلاح أولا، ثم انشغال الفتاة بأشياء حزبية حتى يتسنى له الاختلاط بها أكثر فاكثر ويلين

قلبها ويجرها لصفوف الساقطات الأُخريات، ويتقرب منها وتكون عشيقته المثالية والفريدة...!تبسم من فداحة تفكيره وجدية محاولاته للتقرب من تلك الفتاة واستقرت عيناه على صورتها الملصقة على ملفها فرآها حقا جميلة بشكل يرتجف لها الفؤاد، وتجذب النظر دون هوادة أو تفكير...فراح يدبر الوقوع بها وجرها للمصيدة " صوَّرَ نفسه بشكل محترم وهو في زي مدني ويتحدث عن المسائل الثقافية من أوسع أبوابها، ولكن ضيق تفكيره وقلة ثقافته جعلاه يغتم لحاله وعدم سيطرته على نفسه ، فهو من بيئة غير مثقفة، ولم يكمل إلا الصف الثالث المتوسط ولم يقرأ كتابا أو كُتَيِبا صغيراً طيلة حياته سوى تقارير العملاء أو الحزبيين وملفاتهم ، اغتم لحاله وبدأت النشوة السابقة بالرجوع والانطفاء شيئا فشيئا ، ولكن لم يرضخ تحت هذا التأثير كثيرا وحاول إبراز موقعه من الحزب وقراءة أحوال المسؤولين الآخرين فهم من نفس الطبقة ولا يتمتعون بأدنى نوع من الثقافة الحقيقية ومع ذلك يُطلق عليهم أسياد العراق...ان الإخلاص للحزب والقائد يجعل من المرء البدوي وغير المتعلم او اللامثقف نموذجا حيا بين أقرانه ويُشار إليه كقدوة صالحة للفرد الصالح، فالشهادة الحزبية أقوى الشهادات والتزكية الحزبية أقوى من كل تصور أو شيء آخر تكون محل إعجاب الفتيات والنساء أو الناس عامة...

لماذا الشعور بالنقص جراء قلة الثقافة أو التعليم ؟! فالمسؤولون الكبار ولاسيما الوزراء أو رؤساء الشُعب من نفس الطينة ومع ذلك يتمتعون بشخصية قوية والكُل يحاول التقرب منهم ويذللون أنفسهم على عتبات أبوابهم...!!هكذا رسم القائد ملامح الشخصية الحزبية ، وأراد لها أن

تكون محل أنظار الجميع ومطمع كل فاشل أو خائب في الدراسة " شريطة الالتزام بمبادئ الحزب وقائده الفذ... !فليسقط التعليم وتحل محله الأُمية والجهل ولترتفع شارة الحزبية والولاء للحزب على الثقافة والتعليم والتقدم... ! !

تبسم المسؤول من وضعها وتَفاخُرها الباطل بالحزب وقائده... واعتبر الفتاة منذ اللحظة التي أراد التقرب منها لقمة سائغة بحكم منصبه وولائه للحزب... !

سيمضي معها وقتاً ممتعاً، وترضي شهواته التي ليس لها حدود ولا يشبع أبدا... !

وبلهفة وجدية أقبل على الأمر وخلال هذا اليوم دبر مكيدته للوقوع بالفتاة وجرها لحبائل مصيدته...

ولهيران وصلاح دور هام في تنفيذ مبتغاه وأفهم المسؤول صلاح كيفية الأمر ومع أن العائق الأمثل أمامه عدم إتقان هيران للغة العربية والتكلم بها، ولكن إقامة الفتاة معهما في نفس البيت لها طابع مميز في الاختلاط وفهم المزاج وكل ما يتعلق بليالي الهوى، وقُبيل بدء الزوجين محاولتهما رتب معها لقاء خاص كي يتقرب منها وتتبين له جوانب من شخصيتها...

وشتان ما بين النفسيتين...فالفتاة عبارة عن رقة وإحساس جميل وثقافة عالية لا تضاهيها مثيلاتها ، والمسؤول شهواني جاهل لا يتمتع بأدنى نوع من الثقافة...بل همه الوحيد إرضاء رغباته وإحياء لياليه الحُمر مع بنات الهوى وساقطات رخيصات من بني جلدته أو الساقطات الأُخريات في المدينة...

ومنذ الوهلة الأُولى انكشفت نوايا المسؤول للفتاة وتبيَّن لها حقيقة رجال الحزب ومن يرقد تحت ظِلهم القاتِم ...وكان لقاءهما الأول بمثابة خطوة هامة في حياة الفتاة وبُعدها عن مسار الحزب ومسؤوليه الرُذَل...ومن جهل المسؤول بشخصية الفتاة تحدث عن الإباحية وإحياء الليالي مع الساقطات وقضاء الوقت بهذا الشكل، واعتبر الحزب سنداً قوياً في درب الفسق والمجون...واندهشت الفتاة حين سماعها لأقوال المسؤول وخافت على نفسها من هؤلاء الأشرار الذين اعتبرتهم يوما ما الرجال الأوفياء للعراق ومستقبله الواعد...ولم تتمالك نفسها وأبدت النفور من أقواله بقولها:

ـ تعتبر هذه المسائل شخصية وإنني حُرة في تصوري لحياتي وعلاقاتي مع الآخرين وقضاء أوقاتي...

بدا للمسؤول حدة أُسلوبها، ولعدم تحليه بالصبر أمام جمال هذه الفاتنة وخوفه من كرهها له ، قال مصطنعاً الحديث:

ـ صحيح ...كُل شخص حُر في اختيار علاقاته وقضاء أوقاته... ولكن لا بد للإنسان من أن يتحرر ويكسر أغلال الماضي ويكون إنساناً حضارياً...

+ ولكن التحرُر لا يعني إطلاق العَنان للشهوات والجري أمام الرغبات دون هوادة، وكسر كافة القيود الاجتماعية والدينية وخاصة الأخلاقية...

لم يكن للمسؤول بُدٌ سوى الإذعان للفتاة فالإصرار على أقواله وتصوراته الإباحية تجعله بغيضا عندها، ويمكن أن تكون الفتاة عميلة سرية للمخابرات أو الأمن، وإرسالها لهذه المدينة بمثابة اختبار أو مأمورية لا تخلو من الإيقاع بالآخرين وتصفية حسابات الحزب مع المسؤولين...

واختار أسلوبا آخرا لم يألفه من قبل في التعامل مع الفتيات وحاول محو كلامه السابق بقوله:

ـ إنَّك حقاً إنسانة مثقفة ..تشرفت بمعرفتك...واعتز بصداقتك والعمل معاً لنشر مبادئ الحزب وأقوال القائد ـ حفظه الله ـ

لم تكن الفتاة لتخدع بهذه الكلمات الزائفة فهي رقيقة الإحساس، وتفهم مدى جشاعة نظرات المسؤول وخُبث نيته، ولمسايرة الأوضاع وتمشيتها قالت:

ـ شكرا لك...اعتبر نفسي مندوبة الحزب في مدرستي وأنا فداء السيد الرئيس ـ حفظه الله ـ

ثم شرع المسؤول في الحديث عن كيفية العمل الحزبي في السليمانية وقال:

ـ إننا نعيش في مدينة مبوأة بالفتن والقلاقل...يجب أن تأخذي حِذرَكِ " أية حركة تحسين بها لا بد من إبلاغ رجال الأمن ...في هذه المرحلة نقوم بتصفية العناصر المخربة واجتثاث جذورهم...إنك مسؤولة الحزب في المدرسة، ونُريد إعلامنا بكافة الأُمور أو مجريات الأحداث ...نعتمد عليك في ذلك وريثما تستقرين وتألفين الوضع نكلفك بمسؤوليات أُخرى...

ضجرت من كلام المسؤول، وتمالكت نفسها حتى ينتهي اللقاء الأول بأمان وتخرج من الغرفة دون أن تبدي تصورها الحقيقي وإيمانها الزائف بالحزب وقائده المغرور ، وانتهى اللقاء الاول وقد علمت سبب اهتمام المسؤول بها، ولماذا يحوم حولها بنظراته الجشعة التي تحمل طابعاً شهوانياً ومعاني دنيئة...

وهنا تذكرت جمالها وسبب اهتمام المسؤول بها ، والى متى تصبر على مكائد الرجال للوقوع بها...تقذرت من الرجال ونظراتهم لها، وفجأة طرأ شهزاد على مخيلتها ونظراته البريئة تحمل طابعاً مميزاً ، وما لهذه العلاقة الفتية من مدلولات بريئة ونظيفة...فلهذا المعلم تأثير خاص على مشاعرها وقلبها المجروح ، وتحب فيه البراءة وعدم ابتغائه الجسد والشهوة العارمة... إنه ليس كمثله من الرجال " وتعامله معها خير دليل على ذلك ، فأقرانه من المعلمين ينظرون إليها ويتعاملون معها بأسلوب مغاير لأسلوب هذا المعلم، وكل حركة وهمسة منه دليل على براءته وعفته...هل هذه بداية لقصة حُب جديدة وعلاقة عاطفية أُخرى...؟! لا إنَّ الإعجاب والحُب شيئان مختلفان...وإعجابها بشهزاد قد يؤدي إلى حب حقيقي يخلو من العلاقات المشينة مثل سابقتها...

وفي خضم النشوة وسرورها قالت في نفسها:"لا أُبالي كيف تنتهي هذه العلاقة...فأنت مصدر نشوتي وفرحي وحياتي من جديد...أنا معجبة بك أيَّمَا إعجاب...إنك حقاً إنسان رائع...لا أشعر بالحرج من أن أقول لك أُحب فيك البراءة والعفة...

لستُ متأكدة من صحة مشاعري تجاهك...ولكن قلبي يرتجف لرؤيتك وأُحب أن نبقي مع البعض لأطول وقت ...

يا نسيم الروح هلل من جديد...أراك سعيداً للرفقة الطيبة والفارس الحقيقي ...".

توقفت عن التفكير ، وارتسمت على وجهها علامات الخجل ونوع من الحُب المدفون وراءه ...ولإدراكها حقيقة أن للحزب ومسؤوليه دور هام في

هذا الشعور والإحساس، وفهم الأُمور على وجهها الحقيقي بعيداً عـن التـأثير الزائف لوسائل الإعلام وكلام المسؤولين الأُميين...

إنَّ الحقيقة لا تخفى أبـداً " فـالحزب عبـارة عـن منظمـة إرهابيـة يقودهـا القائد السفاح وكومة من الجلاوزة والفاشـلين... ولابـد مـن مـسايرة الوضـع ليتسنى لها تدبير أمورها ومُراجعة معتقداتها وعلاقاتها...

6

بدأت العلاقة بينهما تأخذ مَنْحىً آخر...ولم يعد يخفى عليهما الإعجاب وحُب الصفات الحميمة والخُلقية لبعضهما...فالنظرات البريئة والتي تحمل معاني عظيمة تولدت بينهما وتآلف روحاهما في صورة عجيبة كأنهما يعرفان بعضهما منذ أمد بعيد...

شعرا بالحب والبراءة والعِفة وولادة قصة عظيمة في خضم العلاقة اليومية بينهما وعدم انحرافها عن مسارها الصحيح " بل كانا يمارسان الحُب عبر النظرات ويُكنان لبعضهما أجمل إحساس وشعور لم يذوقاهُ ولم يمر على إحساسهما طيلة حياتهما...

يا للحُب البريء كم هو جميلٌ إذا ما صُبِغَ بالبراءة وحمل معاني إنسانية عظيمة...!فهو يجعل من المرء إنساناً يؤدي دورهُ في المُجتمع بشكل فريد بعيداً عن مزآلق الشهوة العارمة ومهاويها الخبيثة والدنيئة...

فالحب ألهمهما رقة وإحساساً يشعران معهما بالنشوة والسرور لحظة بلحظة ويوماً بيوم ...ويمر وقت الدوام عليهما بسرعة فائقة دون أن يشعرا به...ورغم وجود ذلك الإحساس بينهما إلا انهما لم يبوحاهُ بشكل مباشر لبعضهما...!

حاولت الفتاة من جانبها معرفة كُل ما يتعلق بشهزاد من عائلته وأقربائه ونشأته منذ صغره، وأصرت عليه زيارة بيته والتعرف على أفراد عائلته...

ولم يجد شهزاد مانعاً في تنفيذ رغبتها وتعريفها بأهله، مع أن بيتهم كان يقع في حي شعبي مبني من الطين ووسط منطقة عريقة تعتبر من أقدم الأحياء في السليمانية...

وبعد انتهاء الدَّوام اصطحبها لبيته ، وذهبا مشياً على الأقدام رغم بُعد المنطقة عن المدرسة...بدأ بالحديث عن معالم الحي القديم من بنايات وآثار عريقة ترمز لعهد العثمانيين " فمازال حيهم يحمل رياح الماضي وأيام حكم الأمارة المعروفة بالبابانيين...

فمداخل الحي صُمِمَت بشكل هندسي على الطراز العثماني، وكانت البنايات مكونة من طابقين وغُرَف مُتَعَدِّدَة، وبُركة وسط حديقة مليئة بالأشجار والزهور، وخُضْرَة مُنْتَشِرَة في كل رُكن تبدأ من باب البيت وحتى جوانب من أسوار البيت...

ومن أروع المناظر الجذابة والتي تحمل رياح الماضي الحمام المكون من قُبَّتين كبيرتين والذي يعتبر معلماً هاماً في الحي ، فكل فردٍ سواء كان ذكراً أم أُنثى له ذكرى داخل الحمام...

ولمنبع الماء الحار في الحمام حكايات عجيبة عن عالم الجن وخوف الناس من الاقتراب منه، ولهذه الحكايات والروايات تأثير خاص على الصغار وعدم ابتعادهم عن أُمهاتهم أثناء استحمامهم خوفا من العالم المجهول ذي الأرواح الشريرة والماردة...

ويطل الشارع العام على بناية "السراي" العريقة، وهي بناية لها شأن ومكانة خاصة في تأريخ المدينة وذلك بتاريخها المُشرِف إبان الاحتلال الإنكليزي للمدينة والانتفاضة المعروفة عام 1930، والمجزرة التي ارتكبها الإنكليز بحق الثائرين ، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم أصبح السراي رمزاً للمدينة وقُطراً لكافة الحركات ومحل أنظار قاطني المدينة والقادمين من كل حدبٍ وصَوب.

أصغت الفتاة باهتمام بالغ لحديث شهزاد عن مدينته وحيه الذي تربى فيه... فتبين لها في مخيلتها جوانب هامة من شخصيته التي أُعجبت بها وحلقت حواليها منذ اللقاء الأول بينهما... وأحبته بصدق من أعماق قلبها ورأت فيه الفارس الحقيقي لأحلامها والحبيب المُستحق لكل تضحية وفداء.

وصلا معاً لبيته، وحضنتها أُم شهزاد وأُختاه بحنان غير مسبوق، وشعرت الفتاة بحرارة حُضن أُم شهزاد وصدقها في معاملتها، ورأت فيهم نموذجاً من عائلتها التي ابتعدت عنها ولم تعُد تعيش بينهم...حزنت لحالها وذرفت عيناها دمعاتٍ وسط أهازيج الفرح والحنين للماضي وما يحمله من ذكريات ووقائع لا تُنسى...مع بُعدها عنهم وعيشها بمفردها في مدينة بعيدة وسط أُناس غُرَباء...

بكوا جميعا لبكائها، وخيَّمَ الحُزن والصمت عليهم للحظات قليلة، وكسر شهزاد حاجز الصمت بقوله:

ـ انك في بيتك...حنان أرجوك لماذا البُكاء...؟! إنَّ أُمي مثل أُمِك، انك لست غريبة بل أنت منا وفينا...

وفي حركة عجيبة اقترب منها ومسك يديها وهمس في أُذنيها:

ـ أرجوك لا تكوني حزينة بهذا الشكل...

وأثـرت الكلمـات وقربـه عليهـا، وتمالكـت نفـسها وبلطـف ورويـدا رويـدا ابتعدت عنه، وعبرت أُم شهزاد عن حبها لهـا بأجمـل تعـبير، وتفهمهـا رغـم حداثة تعلمها للغة الكوردية...

قضوا معاً وقتاً مُمتعَاً ، ونشأ لدى الفتاة تصور واضح عن حياة شـهزاد وعائلته، فازداد إعجابها به أكثر من ذي قبل وتأكدَت من شـعورها تجاهـه، وبعد أن تناولا الغداء جلسا في غرفته لوحدهما ووسـط المكتبـة المتواضـعة له والكُتب العربية والكوردية " فأخـذت الفتـاة بيـدها كتابـاً كورديـاً وقـرأت سطوراً منه، وساعدها شهزاد في تصحيح ألفاظ الكلمات وأثناء ذلك استقرت عيناهما في عيني بعض، ومـرت لحظـات الـصمت مكتنفـة لأجمـل إحـساس وحُب حقيقي، وبنظراتهما يغوصان في أعماق الحُب الحقيقي ويحملان أجمل صورة رسمت لمثل هذه العلاقات...وكانت كُل نظرة بمثابة بريـد أو رسـالة قصيرة فهما يتلذذان بالصمت وهذا النوع من الحُب المكنون والمخفـي وراء النظرات وقراءة العينين...وغفلا عن الدنيا سوى الرقود في أحضان الحُـب، وتركا المحسوسات وكل شيء مادي وما يتعلق بالدنيا...

ولرحلتهما طعم خاص وتأثير كُلي على حركاتهما ، ومـرَّ الوقـتُ عليهمـا دون أن يحسا بأي شيء " غير حل الألغاز المكنونة داخل العيون...

وقبل أن تنتهي هذه الرحلة العجيبـة والأُسـلوب الفريـد في الحُـب تبـادلا نفس الشعور دون التفوّه بكلمات أو كلام يُفهم منه معنى ما... ولكن طغى نوع من الإحساس فمنعهما من البَوح به ...وكُل واحد منهما صاحب تجربة فاشلة ويخاف من تكرار نفس المعاناة...

وكانت تجربة شهزاد في حبه مختلفة عن التجربة التي خاضتها الفتاة، فهو أحب بنتاً من الحي المجاور لهم ولم يبح لها بشيء سوى النظر إليها وتعقُبها من بعيد...

واستمر الشاب في حبها على نفس المنوال طيلة سنوات، وبعد ذلك وفجأة تزوجت الفتاة وتركته يكابد ألم الهجران وفراق الحبيبة التي أحبها لسنوات عدة...

ولم تكن آثار تجربته بأقل من تجربة الفتاة، فخيَّم الحُزن على قلبه وبكى لها بُكَاء حاراً، وكثيرا ما يترك بيته ويذهب للمقبرة القريبة من بيتهم...ويقعد على قبر والده ويذرف الدموع حُزناً على فراق حبيبته ونصيبه من الدنيا...وأثناء وجوده في البيت يدخل غُرفته ويغلق بابه ولا يفتحه حتى لأُمه الحنونة...ويكتب القصائد والشعر كعزاء لنفسه ومرثاة لفقدان أعز إنسانة في حياته...

ولهذه التجربة آثار عميقة ومؤلمة على قلبه، ومنذ ذلك الحين وجد نفسه وسط الأمواج العاتمة والشعور بالإحباط وعدم ثقته بنفسه من التعبير عما يُكن بداخله...فتكونت عُقدة شائكة العُرَى في نفسه وهو فاقد للشجاعة والجُرأة والتعبير عما يجيش بداخله أو أعماق قلبه...وانتابه حُزن شديد إثرَ تذكره لحاله وعدم ثقته بنفسه، ورأت الفتاة على وجهه آثار الحُزن وسألته بلطف:

ـ لماذا أرى الحُزن مرتسماً على وجهك ؟ هل أنت ضائق لوجودي في بيتك ؟

ابتسم ابتسامة عابرة ونفى بقوله:

ـ لا أبداً...بل لأول مرة أشعر بالسعادة بعد أن ...

لم يكمل كلامه وأصرت الفتاة عليه وسألته مرة أُخرى :

ـ بعد ماذا ؟

+ بعد أن فقدتها ..

حاولت مراعاة شعوره ، وبأدب مُلفت للنظر سألته:

ـ هل لي أن أتكلم معك بصراحة ...؟

شعر باقتراب حل عقدته " أو بالفرج الشافي لآلامه وما أصابه من حُزن وقال:

ـ بكل تأكيد...

قبل الخوض بالسؤال عن سبب حُزنه أو شيء آخر يتعلق به، تكلمت عن نفسها بصراحة وقالت:

ـ لا أدري هل تتذكر أنه ذات مرة سألتني عن حالي وشيء من حياتي في الماضي وقُلت حينها دع الأُمور تأخذ مجراها " والآن حان وقتُ التكلم بصراحة..

تنفست بصعوبة بالغة وآثار الماضي على وجهها وبجرأة غير مسبوقة قالت:

ـ إنني هاربة من فضيحة...أحببتُ سافلاً ماكراً ولكن بعد أن سلمت نفسي لَهُ خدعني ولدغني مثل الحية، ثم هجرني ببساطة دون أن يتحمل عاقبة فِعلته...!!

ذرفت عيناها كالمطر المنهل ومسحت دموعها ثم سيطرت على نفسها وقالت:

ـــ والآن أُكابـد ألم البُعـد عـن الأهـل والفـضيحة والـشعور باليـأس والإحباط...هل تدري لماذا أنا موجودة في هذه المدينة البعيـدة عـن بـيتي ومسقط رأسي ؟! لأنني فقدت أغلـى مـا كنـت أمتلكـه...أنـا الآن في نظـر المجتمع ساقطة...ساقطة...

سكت شهزاد ولم يتفوه حتى ببنت شفة مـع تـأثير كلامهـا عليـه، وبعـد استيعابه للحديث ومُضي لحظات عصيبة قال:

ـ أنت أشرف فتـاة عرفتهـا في حيـاتي...لا أسمـح لـك أن تتكلمـي عـن نفسك بهذا الأُسلوب...

اندهشت الفتاة من رده وخطت نحـوه بخطـوات ثابتـة، وبلهفـة وحُـب لا يُضاهيه شيء آخر عانقته وحضنته، وقالت دون خجل أو استحياء:

ـــ أُحبك...أموت فيك...أنت فـارس أحلامـي ... أنـت..أنـت نـشوتي وكل شيء في حياتي...

ولأول مرة أحس شهزاد بجسم غريب يقترب منه وحضنها بنفس الشكل وقال:

ـ أُحبك...أموت فيك...

بقيا معاً متعانقان ومحتضنان ، ثُم تفارقـا، وتحـدث شـهزاد عـن نفـسه وتجربته الفاشلة وكله أمل ونـشاط وجـرأة تعلمهـا مـن حبيبتـه ، وقبـل أن يخرجا من الغُرفة تعانقا مـرة أُخـرى وبقيـا يمارسـان الحُـب دون أن يكـسرا القيود الاجتماعية والأخلاقية...

وكان لهذا اليوم تأثير خـاص علـى قلـب كـل واحـد منهمـا...فبالنـسبة للفتاة وجدت فارسها الحقيقي الذي طـال البحـثُ عنـه إلى أن وجدتـه ، أمـا

شهزاد فانحلَّت كُل عُقَده السابقة ، ونال مبتغاه بعدما عانى كثيراً من الوحدة وشعوره بالكبت والخوف من أن يُصارح الفتاة بما يحس به...

مضى يوم جميل عليهما وهُما بهذه الخطوة أصابهما نوع من السعادة الروحية مما حدا بهما ينسيان همومهما ويتخطيا العراقيل والأشواك المدروسة في طريقهما...

وفي هذه الليلة كتبت الفتاة هذه السطور : "أنا سعيدة...فرحة... لم أشعر بالسعادة منذ زمن بعيد بهذا الشكل...إنني أُحب من جديد...وجدتُ فارس أحلامي، انه إنسان رائع...ذو نظرة عميقة للحياة...انه ليس كالمخادع السافل...روحي تواقة لمعانقة روحه...أصبح لحياتي معنى خاص...هو أملي وحبي ونشوتي وحياتي...

يا حبيب القلب أين كنت...؟!! بحثت عنك حتى خُدعت بذاك السافل ...!أنت رقيق الإحساس ، عفيف الأخلاق أُحبك...لا أشعر بالخجل منك، أُحبك من أعماق قلبي...".

وضعت القلم جانباً ، وامتدت على سريرها ، وسرحت بفكرها وأخذت تفكر في حبيبها وهي تتزين له وتستقبله استقبال الأبطال وتُفرش له الأرض وتعانقه وترقص معه في الغُرفة حتى تجهده ، ثم ترقد معه على السرير وتدخل علاقتهما مرحلة أُخرى ويشعران بالنشوة الأبدية...

7

شكَّلت العملياتُ المُستَمِرَّة للثوار خُطُورَةً بالغة على الوضع العام في المدينة " كانوا يُلقون القنابل اليدوية أو يُطلقون النَّار على العسكريين أو العُملاء ، وَكَردِ فعل على ذلك تقوم السلطات القمعية بهدم الدكاكين والأبنية وبتطويق المناطق السكنية والتجارية وإلقاء القبض على الأبرياء...

فقدت الحياة بريقها وجمالها تحت وطأة حُكم الجلاوزة ، وفَرَّ آلاف الناس من الخدمة العسكرية والقمع الوحشي نحو القُرى أو إيران ، ولكن وضع القرى أيضا بات على مَهَب الريح ، فهُدِمَت غالبية القرى بمراحل ، وزجَّ بساكنيها في مُجمعات ضيقة بعيدة عن أبسط الخدمات الإنسانية...وبلغ الأمرُ ذروته عندما أصدر الطاغية حكمه الجائر بتهجير كافة القرى الكوردية وحرمان أهلها من مواطن آبائهم وأجدادهم...وكانت هذه الخُطوة بمثابة تفكيك واجتثاث البُنية التحتية للمُجتمع الكوردي بأسره...وخلقَ القرار بلبلة عارمة ، وتبعه اضطهاد وقمع لم يشهده التأريخ الكوردي طيلة عهوده الغابرة ، ولاح في الآفاق بداية الإبادة الجماعية في معسكرات الأنفال المشابهة لأُتون الموت النازية...

وأصبحت الحياة لا تُطاق، والعيش فارغاً من معانيه وأشكاله المُتعددة...والناس يدورون وسط حلقة فارعة ، ويكابدون أبشع أنواع الظلم والاضطهاد...

فلا يمر يوم إلا ويَصْحو النـاسُ علـى فاجعـة جديـدة ومآسـي أدهـى مـن سـابقاتها... والكـل مفـزوع مـن جـلاوزة النظـام وسـجونهم المُظلمـة... فالجلاوزة يلقون القبض على الأبرياء بمجـرد كتابـة تقريـر عـنهم ويقومـون بتصفيتهم داخـل سـجونهم ويقبـضون كلفـة الطلقـات مـن عـائلاتهم مقابـل تسليم جثث أبناءهم...

طغى هاجس الخوف علـى الجميـع، وغُيِّـرَ شـكل المدينـة بـساكنيها إثـر تهجير القرى ، ودخـل الآلاف مـن القـرويين البائـسين أحيـاء المدينـة خفيـةً هاربين من مجمعاتهم المشابهة لمعسكرات الإبادة والتصفية البشرية...

هاجت ثائرة الفتاة إثـر مـشاهدتها ومعايـشتها لهـذه الأحـداث المؤلمـة، وعدم تمكن النـاس مـن مزاولـة أعمـالهم وممارسـة حيـاتهم اليوميـة بـشكل طبيعي...

ومقتت الحزب والطاغية وكُل من ينتمي أو يرمز لـه بـشيء...دخلـت في مُعترك الطريق وهي بنظرتها الإنسانية تحلق عالياً وتبعد عـن مـسار الحـزب ومسؤوليه ونظرتهم الشوفينية للأقوام الأُخرى...

فرحت أشد الفرح لاختيارها وتصورها الإنـساني والابتعـاد عـن التـصور القومي الضيق...

فتخيلت مُجتمعاً إنسانيا بدلاً من مناخ قومي ضيق ، وأبت أن تكون مع القوميين الشوفينيين " فالفضاء الإنساني أوسع بكثير من أي فضاء آخر ، ودرب الإنـسانية أليـق مـن غيرهـا...وهـذه الممارسـات اللاإنـسانية وليـدة الـتفكير القـومي الـضيق وإبـادة الـشعوب بُغيـة الوصـول للأهـداف البـشعة والشريرة...

أشرق تفكيرها وتصورها جنبات روحها الممزق، وأحسّت بفرحة تملأ قلبها وتجعلها شخصاً آخر تفوق زمنها وعهدها وبيئتها الملوثة بالأفكار العدائية للقوميات والأجناس غير العربية...

وما كان لومها وعتابها لنفسها بل الحزب جعل منها ومن العراق بأسره دُمية يحركهم حسب معتقداته الرجعية ذات النظرة القبلية...

"أي عار يُصيب الإنسان ويلاحقه أينما كان عندما يسمح لأي مخلوق أو هيئة تسخر منه وتُملي عليه أفكاراً وآراء لا تمت للإنسانية ومُجتمعها الزاهر...! !والعراق أسير الحزب المُجرم وقائده المصاب بجنون العظمة...أيّها الأوغاد في أعقاب التجربة الفاشلة وهروبي منها تبين لي حقيقتكم وزيف أقوالكم ومعتقداتكم ...! !إن العراق أسير يرضخ تحت حكمكم الجائر...الى متى تتربعون على عرش الحكم وتتحكمون بمصير الملايين من الأبرياء...! ؟ والبلد يعاني بأحيائه وأمواته منكم ، فما للحياة بهذا الشكل معنى تجعلها تدوم... ".

ثم تذكرت قول الشاعر:

فيا موت زُر إنَّ الحياة ذميمة

ويا نفس جِدي إنَّ دهركِ هازلٌ

كانت جالسة في غرفتها مكتئبة إثر حديثها مع شهزاد في واحة المدرسة صباحاً عن الوضع العام للبلد والإبادة الجماعية التي يتعرض لها الأكراد ، سمعت رنين الجرس ولم تأبه له ، وبعد لحظات دق باب غرفتها فهبَّت لفتحه واطمأنت من حالها قبل أن تفتحه... ورأت هيران واقفة على الباب وهي تلبس لباساً شبه عارية وطلبت منها أن تلبس لباساً مشابهاً لها لأن

بعـض الشخـصيات الحزبيــة بمـا فـيهم مـسؤول المنظمـة حلّـوا ضـيوفاً عليهم...

ازداد اكتئابها لسماعها الخبر فـأرادت أن تـأبى الحـضور ولكنهـا خافـت من شرٍ يلاحقها بـسبب عـدم مبالاتهـا لحـضورهم فلبـست لباسـاً محتـشماً وتركت وجههـا وشـعرها كمـا هـو دون أن تُـسرحه أو تـضع ماكياجـاً علـى وجهها ...

قبـل أن تخـرج مـن غرفتهـا اعتـبرت زيـارتهم حـدثاً مألوفـاً واعتياديـا، وبرؤيتهـا لغرفـة اسـتقبال الـزوجين والمـسؤولين فهمـت الحالـة ، وبعـد أن رحبت بهم جلست على أريكة بعيدة عنهم ، ثم لم يدم الوضـع بهـذا الـشكل كثيراً " إذ تقدم اثنان من الخدم المرافقون للمسؤولين بطاولـة، وفي غـضون لحظات ملؤها بالمشروبات وملحقاتها المطلوبة... خافت الفتاة على نفسها من تلك الذئاب المفترسة ودعت الله أن تمر الليلة بأمان...

مرَّت اللحظات بسرعة فائقة، وجلس الكل على الطاولة بمـا فـيهم هـيران ما عدا الفتاة ، وقد أرادت مغادرة الغُرفة ، أصروا عليها البقـاء ومـشاركتهم سهرهم ولكنها أبت " مُقدِمَةً أعذار مصطنعة هروبـا مـن مجـونهم الـذي بـات وشيك الوقوع ...

نجت منهم بأعجوبة وبتمثلها لمرض يحتاج للراحة والرقـود في الـسرير ، وما صدقت نفسها إلا بعد أن أحكمت إغلاق باب غرفتها ولم تذق طعم النوم حتى بعد مغادرة المسؤولين وجه الصبح للبيت...

وفي هذه الليلة تبين لها شكل حياتها بينهم ، ولم تعد تحترم في نفسها الزوجين لأنهما عديما الأخلاق " وهيران ساقطة رخيصة تقدم نفسها كهبة وجارية دون أن تحترم زوجها وهو أيضا ديوث عديم الأخلاق والمروءة...

وأيقنت تكرار نفس الشيء في الليالي القادمة، وأن الخطر يحدق بها، وإذا ما استمر الوضع بهذا الشكل فأنها تُصاب بالجنون ، فليس لها العيش بينهم وهم أهل الفسق والمجون ، ويولون الظَهر لكل إحساس جميل ورقة إنسانية عالية...

ومع عدم نومها، وسهرها طيلة الليل إلا أنها بعد مغادرتهم مباشرة غادرت البيت باكرا متجهة قبل الدوام لبيت شهزاد...

اندهش أهل البيت من رؤيتهم للفتاة في مثل هذا الوقت، وغضوا النظر عن ذلك ورحبُّوا بها ...وكانت تبدو على قسمات وجهها آثار السهر وعدم النوم ، وتعامل عائلة شهزاد مع زيارتها المفاجئة بشكل عادي وبعد الترحاب بها بقيت الفتاة وحدها مع شهزاد في الغُرفة... حاولت السيطرة على نفسها ولكنها انفجرت باكية ومحتضنة لشهزاد، وتبدو كمصابة بداهية كبيرة الشأن والأمر ، استمرت الفتاة بحالها إلى أن فرغت من حزنها وبعد أن هدأت من روعها قالت:

ـ انك لا تصدق ما الذي كاد أن يحصل الليلة..! !

+ ما الذي جرى...؟!

ـ إنني أعيش في بيت للدعارة...هيران وغيرها يُقدمن أنفسهُنَّ كأرخص الأشياء للمسؤولين بمن فيهم مسؤول المنظمة... تصور أنهم باتوا الليلة ساهرين والعاهرة تداريهم ، وأصروا علي البقاء وتمثلت عليهم بالمرض إلى

أن نجوت منهم بأعجوبة...ولم أنم الليل بأسره إلى أن غادروا البيت وجه الصُبح... انهم حُثالة وعديموا الأخلاق... لا يُمكنني تصور ذلك أبداً...ان الخطر يحدق بي ... أرجوك ساعدني على مغادرة هذا البيت بأي شكل ممكن...

خفف عليها الحالة وقال:

ـ لا تخافي إنني أحاول إيجاد حل لك...أرجوك اهدئي لا يمكننا التفكر في هذه الحالة...المهم أن تهدئي وتفكري بطريقة تستطيعين مُغادرة هذا البيت...

وضعت رأسها على صدره وقالت بشكل مضطرب:

ـ سأنتقل لبيتك...أمكث هُنا وأعيش بينكم...

بقي ساكتاً دون أن يرد عليها واستمرت هي في الحديث وقالت:

ـ هل تُمانعُ في ذلك...؟

+ لا أبداً ...ولكن الأوغاد لا يسكتون ، يجب تدبير الأمر بشكل طبيعي دون أن يحسوا بعلاقتنا معاً...

صحت من ذهولها بكلامه وقالت:

ـ ليس لي سواك...أنت كُل شيء بالنسبة لي ...أرجوك لا تخذلني" فأنا محتاجة إليك...

حضنها بحب وقال:

ـ أنا مستعد لمساعدتك ...أنت بالنسبة لي أملي ومصدر نشوتي في الحياة...ولكن الأمر يحتاج إلى التأني والتفكر بعقلانية ، انهم ذئاب

ومجرمـــون ، فالمـــسؤول وضـــع عينـــه عليـــك وهـــو معـــروف بدناءتـــه ومجونه...إذا ما علم بعلاقتنا فانه لا يقف مكتوف الأيدي ...

راح تفكيرها يحلق في سماء مُظلم ، ومكائد الشر تلحق حبيبها وتجره لمصير مجهول ، كفت عن ذلك بقولها:

ـ لا...لا أستطيع المخاطرة بك...لا أستطيع العيش بدونك... أنت حبيبي وأملي وروحي وحضني الدفيء... انهم أشرار ولا يتحلون بأدنى صفات إنسانية...

+ حبيبتي إهدئي أرجوك...إنني أفديك بروحي وكياني...يجب عدم الإسراع في اتخاذ أي قرار...

نظرت في عينيه وقالت:

ـ تصور حجم المَخاطر التي تحدق بي " فكيف لي الخلاص من بين أيديهم الملطخة بدماء الأبرياء...

بعد تفكير عميق والصمت عن الكلام للحظات قليلة قال:

ـ أهم ما في الأمر أن تتصرفي بشكل طبيعي...وأن تبدي لهم إخلاصك للحزب والقائد...وحذاري أن يشموا رائحة علاقتنا...

بصعوبة بالغة تنفست بالقرب منه وقالت:

ـ إن ذاك السافل يُلاحقني بنظراته الجشعة ، ولايقف عند هذا الحد...

+ كُوني قوية ، فأنت أقوى منهم بكثير...فلا يستطيعون إرغامك على فعل تكرهينه ، وخاصة أنك من بغداد وعربية الأصل... تحدثي عن المسؤولين الكبار ولو كنت لا تعرفينهم ، تمثلي عليهم بمعرفتك لهم وبالقرابة " فهم يخافون من مواطن نفوذ السلطة...

ـ ولكن أخاف من بيت تلك الداعرة ...إنها مومستهم الخاصة ، تحيي لهم الليالي ذات ألف قصة وقصة...!! فحتى آخر مرة عندما استحممت شعرتُ بمراقبتها لي...وخفت من تلقاء نفسي ، فأنا فاقدة الحرية في ذلك البيت...

+ دعك من تلك المخاوف يجب أن ندبر خِطة تركك لبيتهم بشكل طبيعي دون أن يشعروا...وخاصة بعدما ترجعين لبغداد في عطلة نصف السنة...

ابتسمت، وبخجل قالت:

ـ ومن قال إنني سأرجع لبغداد...!!؟ سأمكث هذه السنة هنا... لا أُريد الرجوع ...

بحرارة ووئام قال:

ـ هل قررت عدم الابتعاد عنا...؟

احمَرَّت وجنتاها وقالت:

ـ بصراحة أُحبك...لا أستطيع الابتعاد عنك...مهما اشتقت لأمي وعائلتي سأمكث بالقرب منك وأصبر على مرارة الابتعاد والغربة...

+ وهل أنت غريبة بيننا...!؟

ـ لا أبداً...فقط مجرد فلتة لسان...

ضحك من كلامها، واقترب منها وأمسك بيديها وقربها من فمه وبعد أن قبَّلهما قال:

ـ لن أتخلى عنك مهما يكن الوضع...كوني واثقةً من الانتصار على هؤلاء الأوغاد...وبالنسبة لقضاء العطلة يُمكنك البقاء هُنا معنا وتقولي لهم انك ترجعين لبغداد...

حاولت من جانبها إبراز عطفها الزائد وقلبها المشغوف بحبه واحتضنته وقالت:

ـ فكرة جيدة...على الأقل أرتاح بالقرب منك...

* * *

شرع المسؤول بمزاولة عمله اليومي، وتفكيره منصب على الفتاة، فهي تلازم مخيلته وإحساسه فلم يصبر على إحداهُنَّ طيلة حياته بمثل صبره على تلك الفتاة البغدادية... ما الذي يجعله يصبر عليها ويكابد ألم البُعد وعدم مشاهدة ومعاشرة الجسم الناعم...؟! إنها كملكات الجمال وشخصيتها المثالية تجعلها جذابة ومحل إعجاب الرجال مهما كان مستواهم الحزبي ومنصبهم...ولابُدَّ من التحرك قبل أن تفلت من بين يديه...ليس للمكيدة الجارية والوسطاء أي تأثير عليها والمحاولة الجديدة تحتاج لأخذ كافة الاعتبارات النفسية في الحُسبان بُغية كسر الحواجز...وفجأة رنَّ تلفون المدرسة وطلب الفتاة...وبعد أن تبادل معها التحية عزمها على الغذاء في مكان خاص لا يرتاده إلا المسؤولون الكبار ذوو المناصب العالية في المدينة...ولكنها أبت الحضور لأعذار صحية واهية ، وأيقن المسؤول كذبها وهروبها وتقبل عذرها بكلام خشن وقال:

ـ في المرة القادمة لا أقبل منك عذراً، فأنك تتهربين من مجالسة رفقاءك الحزبيين... وإننا بمثابة الأهل والعائلة لكم جميعاً...

ردت بقولها:

ـ لا أبداً" أنا مريضة وأحتاج للراحة...وأُمارس مهامي بشكل تام ويوميا أخابر المسؤولين في بغداد ...

أصيب بالدهشة لسماعه العبارة الأخيرة وسألها:

ـ ماذا قلتِ ؟ تُخابرين منْ ؟

+ عندي صلة ومعرفة مع السيد وزير الداخلية شخصيا ومع مدير المخابرات العامة ومع الأُستاذ عدي ...

ذهب بتفكيره بعيداً وسأل نفسه"فهي بهذا الجمال كيف لا تكون محل إعجاب وتنافس المسؤولين الكِبار، إنني حقا مُغفل..."

وبقي يفكر إلى أن قالت:

ـــ إنني مشغولة الآن ، يُمكننا إكمال حديثنا فيما بعد... مع السلامة...

قفلَّت الخط بوجهه قبل أن يتلفظ بكلمة أُخرى !، لقد كان ظنه في محله منذ أول وهلة " فهي مبعوثة المخابرات والمسؤولين الكبار، وذكرت بينهم الأُستاذ عدي النجل الأكبر للرئيس... ! !كيف له أن يترك هذه الجميلة دون أن يتلهى معها...؟!

كم كنتُ مغفلاً وساذجاً...ولكن يمكنني التمثل عليها وتقديم خدمات لها بغية التقرب منها والتمسك بأمل قاتل أو عدم كتابة تقرير عني على الأقل...

وبكمد وحقد كبير خرج من الغرفة وركب سيارته مغادرا مقره العام ، واصطحبه المرافقون بصمتٍ كأنهم يرافقون موكب جنازة...

وبهذه الكذبة تمكنت الفتاة من وضع يدها على أهم الوسائل المؤثرة على المسؤولين الكبار في المدينة وتخويفهم من التلاعب بالضُعفاء والمنكوبين واستخدامهم لنيل مآربهم الخبيثة...وإنها تتمكن في القريب العاجل السيطرة على الوضع والوقوف بوجه أكبر شخصية حزبية مهما كان منصبه الحزبي...

ولم تدع الأمر يمر عليها دون أن تذكره لشهزاد، وهو من جانبه شجَّعها على المضي قُدُماً على نفس المنوال ، واعتبار الكذب والتمثيل وسيلة لدرء المخاطر المُحدقة بها، وإبعاد المسؤولين الفسدة عن طريقها...

8

إن أمر الحُب عجيبٌ وغريب عندما يدخل شغاف القلب ويلامِسَه، ويكبر يوماً بيوم ويحل الأمان على جنبات حواس الإنسان، ويجعل الإنسان يحس بفرحة عارمة ، وتهب رياح الفرح على القلب المشغوف والإحساس المجروح والفؤاد المهلل لغدٍ أفضل...

كانت حالُ الفتاة تجري على قدم وساق في غضون انتقالها لبيت شهزاد والعيش بينهم خلال عُطلة نصف السنة...وتتعود على عيشة أُخرى قريبة من وضع عائلتها، وتغوص في أعماق نفوس أهل بيت حبيبها كُل على حدَة، فأخوات شهزاد قريبات منها في الحس والشعور وهُنَّ يبحن بأسرارهن الشخصية لها وهي تخجل من ذكر حُبها لأخيهنَّ... وتمارس الحُب مع حبيبها تحت مظلة أدبية بعيدة عن المجون والقصص المشينة كما هو الحال بالنسبة لكثير من المعشوقات...وظل حُبهما عفيفا ونظيفا وهما يُكنان لبعضهما أجمل الأحاسيس وأرقى المشاعر وأبهى أنواع العلاقات العاطفية...

وتبدأ يومها بالنهوض باكراً وتصلي الصُبح وتجلس على كرسي خشبي بالقرب من غرفة شهزاد، تأخذ كتاباً وتقرؤه إلى أن يصحو أهل البيت ، ويجلسون على مائدة الطعام وتبدأ اليوم بالتحية والوجه البشوش والضحك

على النُكت التي ترويها بهره الأُخت الصغيرة لشهزاد، وهم يضحكون وتتعالى أصواتهم حتى تصل لبيت جيرانهم...

كان الأسبوع الأول من وجودها بمثابة أحلى أيام عمرها، ولحظاتها عامرة ومليئة بالمحبة للجميع ولاسيما شهزاد...

نسيت همومها الماضية واطمأنت بين أحضان تلك العائلة على حالها واستقرار نفسيتها...وفي كل يومٍ تحتضنها أُم شهزاد كأمها ، وهي من جانبها تشم رائحتها وتحس معها بالحنان والعطف المُلازم لفؤادها... وتضع رأسها على صدر أم حبيبها وكالطفل تحس بأمان الأم ولين القلب والجانب ، ويتفتح بوجهها عالم فريد النوع، عجيب في ذاتها لفتاة ذاقت مرارة البُعد عن الأهل وتربت يتيمة محرومة من عطف والدها ، وأُمها رغم عطفها إلا أنها لم تكن بالمستوى المطلوب مثل أُم شهزاد الحنونة" التي تفارق الحياة على رأس أولادها وتتفقدهم ليلاً ونهاراً واحدا تلو الآخر خوفا من مرض يداهمهم أو قدرٍ يصيبهم بغتةً...فهذا العطف والحنان الحار لأُم شهزاد يمتد ليشمل كُل من له أدنى صلة بها...

وتحاول الفتاة مشاركتهن في العمل المنزلي وخاصة في إحضار الوجبات وغسل الأواني والملابس ، وبسلوكها البسيط والخلوق جذبت انتباه الجميع وفتحوا لها صدورهم ، وأخذت لغتها تتحسن وتفهمهم شيئاً فشياً ، وتتكلم بها رغم ركاكتها وحداثتها إلا أنها بجرأتها وعدم خوفها وحرجها من الوقوع في الخطأ قطعت شوطاً هاما في هذا المجال... وتحاول دائما الإصغاء لهم والتعبير عن حاجاتها اليومية أو أحاسيسها باللغة الكوردية...

أحبها الجميع منذ الأيام الأولى من عيشها بينهم ، وأخذوا يتهاجسون فيما بينهم زواجها من ابنهم بأسرع وقت ، ولا أحد يجرؤ على البوح بها سوى أُمهم" المرأة الكبيرة في البيت وصاحبة السلطان على كل فرد من العائلة ، لذا بادرت بالأمر ورأت أن كليهما يرغبان في إتمام الأمر ولكن ليس بهذه العجالة ، ولم تفهم طبيعة العوائق الماثلة في طريقهما ، وأبدت استعدادها للذهاب إلى بغداد وطلب يد الفتاة من أهلها...ورحبا بالفكرة ولكنهما أرجئا الأمر لإِشعار آخر...

وبقيت العلاقة بينهما تزدهر وكُل فرد من العائلة يحس بالنشوة والفرح حتى أثناء قصف المدينة أو مداهمة البيوت والأحياء وإلقاء القبض على الأبرياء من قبل قوات الأمن أو مفارز الطوارئ والاستخبارات الخاصة...

إلا إن هذه الفرحة والسرور لم يدم طويلاً " ففي أحد الأيام داهمت قوات الأمن الحي القديم وألقوا القبض على شهزاد دون أي مبرر أو داعي لإعتقاله...

دفعوا به وعصبوا عينيه، وكل واحدة من العائلة يبكي وتحاول التوسط لدى جلاوزة الأمن لإخلاء سبيله وخلاصه من بين أيديهم... وجهدت الفتاة في الأمر وباءت محاولاتها بالفشل ، وأصابها الدوران وخَرَّت عليها مغشيةً بعد أن أخذوا حبيبها على مرأى ومسمع من الجميع...

كان لفداحة الأمر تأثير بالغ عليها وعلى إحساسها الرقيق وعواطفها " فهو الشخصية المثالية الذي له تأثير على أهل بيته ومن عاشره خلال دوامه بالمدرسة واختلاطه بالطلاب وذويهم...

انـشغل الجميـع بالفتـاة المغـشية والفاقـدة للـوعي والإحـساس، ونـسوا الداهيــة المحيطــة بهــم ، وبــصعوبة بالغــة وبمــساعدة الجــيران أخــذوها للمستشفى وهي ترزح تحت وقع الحدث، وتتلفظ بكلمات مختلطة ومتقطعـة مـابين العربيـة والكورديـة... وأحيانـا يـرد اسـم شـهزاد مـن بـين شـفتيها المطبقتين وتبدو آثار وقع المصيبة عليها والطبيب يحاول استرجاع الـوعي إليها ويضرب وجهها بلطف ويناديها: "حنان... حنان"

وبعد مضي اللحظات العصيبة فاقت من غيبوبتها وفتحت عينيها وبكـت بكاءً حاراً ، ثم نظرت إليهم فرداً فـرداً ولم تـر حبيبهـا مـن بيـنهم وشـعرت بفداحة الأمر وصعوبته... وحاولت الأُم من جانبها اطمئنانها بقولها:

ـ إنه أمر عادي...فهو ليس له أدنى صلة بالثوار فعندما يحققـون معـه لاشك أنهم سوف يُطلقُون سراحه...

بُنيتي أرجوك اهـدئي ، فأنـا لا أحتمـل رؤيتـك هكـذا...فيوميـاً يُلقـون القبض على آلاف الناس وبعد التحقيق من الأمر يطلقون سـراحهم...المهـم أن تهدئي وتحافظي على صحتك...أرجوك حاولي السيطرة على نفسك...

ومسكت بيديها واقتربت منها ، وقبَّلت جبينها وهي تبادلها نفس الشيء وتقول:

ـ أُمي ...الأشرار أخذوا شهزاد بوحشية لا مثيل لها...

والأُم تهدئها مرة بعد مرة وتقول:

ـ بُنيتي مألوف عندنا اعتقال أبناءنـا ...المهـم انـه بـريء ولـن يطـول اعتقاله...

وبخجل مرتسم على وجهها ترد:

ـ انـي لا أحتمـل البعـد عنـه...أدعـو الله أن يخلـصه مـن بـين أيـديهم الملطخة بدماء الأبرياء...

+ ان شاء الله...

* * *

مرَّ أسبوع على اعتقاله ولم يعُد لبيته ولم يجد أحد له أثراً أو خـبراً مـن قريب أو بعيد...

وفتحت أبواب المدارس ، وبدأ الـدوام يأخـذ شـكله المـألوف والمعتـاد، وحالـة الحـزن والكآبـة مـسيطرة علـى أفـراد عائلتـه ولاسـيما الفتـاة...ولم تستطع السيطرة أو الصبر أكثر من ذلك وبـادرت بنفـسها في محاولـة مليئـة بالمخاطر للسعي من أجل إطلاق سراحه...

كتبت تقريراً عن الوضع في المدرسة وخصَّصت قسماً منـه لـذكر المعلـم البائس، الذي أُلقي القبض عليه أثناء عُطلة نصف السنة وهو آمن في بيتـه ولم يشارك في أية حركة معادية للحزب والنظام ... وذكرت نفسها في سـياق تقريرها كمـسؤولة الحـزب وسـط أهـالي المعلمـين تحـاول ضـمَّهُم لـصفوف الحزب وأشادت بتعاونه مع مراكز السلطة المتعددة في البلد...

ورفعت التقرير بنفسها، وطلبت من مـسؤول المنظمـة أن يـسعى جاهـداً من أجل إطلاق سراح المعلم المذكور في التقرير لأنه تعاون مع الحزب بشكل تام وفعلي...

وفهِم المسؤول الأمر كحدث عادي، وشكرها على جهدها المتواصل بغية إيصال مفاهيم الحزب للناس ونشرها بين المعلمين وعوائلهم...ووعدها بمتابعة أمر المعلم المعتقل حتى إطلاق سراحه ورجوعه سالماً لبيته...

وأراد المسؤول طي ذلك الملف وأخذه جانباً بقوله:

ـ اطمئني على ذلك ، دعك منه ، فأنا أهتم به شخصياً ، ولكن قولي لي كيف قضيت عطلة نصف السنة ببغداد...

فكرت الفتاة مليَّاً بالسؤال وقالت بعد بُرهة من الوقت:

ـ قضيت أجمل أيامي هناك ، لا تُصدق فرحة سيدي الوزير بعودتي وهو بالذات مُصرٌ ألاَّ أُغادر بغداد ، ولكنني قلت فقط هذه السنة ، فأنا قمت بتثقيف المعلمين وعوائلهم...المدرسة باتت فريدة النوع ، الكل يُساند الحزب والقائد...

مسك المسؤول غيظه وحقده على هؤلاء المسؤولين لقربهم ومعاشرتهم لتلك الجميلة ، ولكن أبدى تحفظاً ملحوظاً بقوله:

ـ انه حريص عليك..فأنت مندوبة الحزب ويجب أن تخوضي تجربتك الذاتية وتنقلي لهم مدى المخاطر المُحدقة بنا في هذه المدينة، والمسؤول الحزبي مُستهدف من قبل المخربين وهو لا يألو جهداً في سبيل إيصال مفاهيم الحزب والقائد...

بثقة وسيطرة تامة قالت:

ـ نعم كتبت بعض الذكريات ، وفي إحدى الجلسات قرأته للسيد الوزير وما يفعله الحزب من خدمة الناس والحفاظ على الأمن، والمسؤول الحزبي من جانبه عليه الثقل الأكبر وهو في شغف وشغل دائم ليلاً ونهاراً... وقلت

إنني لم أصدق مارأيته بأُم عيني...ولولا جهود هؤلاء الأفـذاذ مـن الرجـال لمـا تمكـن الحـزب مـن الـسيطرة علـى الوضـع ، وخاصـة في مدينـة مبـوأة بالقلاقل كالسليمانية...

ارتسمت علامات السرور والرضا على وجهه وبغرور وكبرياء قال:

ـ نعم ...إننا في مدينـة لا أحـد يـستطيع الـسيطرة عليهـا غيرنـا...إننـا وسط ساحة المعركة الحقيقية...انتصرنا على الأوغاد...

+ نعـم ذكـرت لـسيدي الـوزير ذلـك بالتفـصيل...وهـو شخـصيا يُقَـيِّم جهودكم، وقال بأنه سيذكر هذا في جلسات مجلس رئاسة الوزراء...

ـ وهل ذكرت دور المنظمة خاصة...؟

+ بالطبع ... بالطبع...

شـكر المـسؤول الفتـاة لجهودهـا الخاصـة في إفهـام الـسيد الـوزير دور المنظمة ، وكرد لجميلها قال:

ـ سأتابع ملف المعلم المعتقل بنفسي وأحـاول الإفـراج عنـه في القريـب العاجل...

وباهتمام بالغ قالت:

ـ اليوم...

+ لو شئت الآن أتصل بمدير الأمن وأسأله عن سبب اعتقاله...!؟

بشوق ولهفة قالت:

ـ نعم " أشكرك كثيراً ، وأريد طمأنة أهل بيته ...

في غضون لحظات مسك سماعة التلفون وضرب رقم مديرية الأمن وطلب مدير الأمن ، ثم بعد ذكره لأسم المعلم صمت صاغياً لدقائق عدة ، وبعد ذلك شكره وقفل الخط، ونظر للفتاة وقال:

ـ يقول مدير الأمن إنه ورد اسمه من بين أسماء خلية مخربة ، وانه قيد التحقيق وبعد أيام يتبين أمره وإذا كان بريئا يفرج عنه...

+ كيف ذلك ؟ ولكنه تعاون معنا باستمرار...وأنا أعرفه حق المعرفة ، وهو كعضو فعال للحزب داخل المدرسة...

ـ نعم ، نعم ، ولكن إجراءات الأمن معقدة وتحتاج للصبر ، فهو في النهاية إن كان بريئا سيفرج عنه ...

+ هل لي بطلب عندك؟

ـ بكل سرور ...

+ أريد زيارته ولو لدقائق معدودة ، فأنا مسؤولته وحتى لا يخيب أمله في انضمامه إلينا...

بعد التفكر قليلاً قال:

ـ أحاول ، وسأتصل بك بعد أن آخذ تصريحاً بذلك...

وحاولت الفتاة إبراز العلاقة بينهما كإِهتمام المسؤول بمن ينوب عنه وقالت:

ـ إن رفاقه وعائلته قلقون وأريد طمأنتهم...

+ إنهم محظوظون بك...

ـ شكراً ...شكراً ...

+ اطمـئني...سـأعاود الاتـصال بـك عنـدما أحـصل علـى تـصريح الزيارة...

ـ أشكرك لاهتمامك بأحد أعضاء الحزب ، والآن أطلب منك أن تأذن لي بالمغادرة...

صافحها وقال:

ـ إلى اللقاء ...سأتصل بك...

+ شكرا ...إلى اللقاء...

ـ إلى اللقاء...

9

قبل أن تعود لمحل إقامتها مرَّت على بيت شهزاد، وحاولت تصفح كافة كتبه وأوراقه الموجودة بالمكتبة ، واستفسرت من اهله سألَت أهله عن ارتباطاته وعلاقاته مع أصدقائه ومعارفه وجيرانه، فوجدت علاقاته محل اطمئنانها وبعيداً عن أي اتهام وعلاقة تجعله محل اعتقال رجال الأمن له ، فسرَّت لذلك وبقيت معهم بعض الوقت ثم غادرت مُتجهةً نحو بيتها وقلبها مضطرب لما أصاب حبيبها وهي تحن لرؤيته ولو من بعيد...

تساءلت في نفسها عن وضعه في السجن وشكل المعاملة التي تجري معه ، وكيف قضى الأيام السبع في زنزانات النظام الدموي...؟! وهل تعرض للضرب والإهانة ؟ ولِمَ يُعتقل حبيبها من بين مئات وآلاف الناس...يالهُ من قدر عجيب ...ما صدقت خروجها وتعديها للأزمة والمحنة السابقة، وأن تجد حُبها الحقيقي حتى يبرز لها عائق طارئ ويسلب منها حبيبها وأمل قلبها...لماذا تركتهم يأخذونه ويزجون به في سجن مظلم وسط أُناس مشبوهين وثوار معتقلين؟ هو بريء ولا يؤمن بأي تنظيم حتى الثوار...انَّه حُرٌ في تفكيره وتصوره ، يؤمن بالمقاومة السلمية وبتثقيف الشعب من الداخل وتوجههم نحو عصيان مدني عام" بُغية تغيير شكل الحُكم والنظام،

وإرساء قواعد الديمقراطية واحترام الذات الإنسانية في الدساتير والقوانين المرسومة للبلد... إنه يُمثل بفكره اتجاها فريدا، وذو نزعة إنسانية ، ومخلص لمبادئه وقومه...لا تتصور خروجه عن تصوراته واتباعه خلية ثورية...لا أبداً... ولكن يُمكن أنَّه عبَّر عن آرائه لأحد فكتب تقريراً عنه مما أدى إلى اعتقاله...كل احتمال وارد في بلد يحكمه نظام همجي، وأُناس أُميّون ذوو نزعات فاشية وتدميرية...

غفت عن خطواتها وتعدت حدود مسكنها وانتبهت لذلك في نهاية المحلة ، ورجعت مكتئبة وفتحت باب البيت ولم تجد به أحداً ودخلت غرفتها وأغلقت بابها ، ثم طرحت بنفسها على الفراش...ووجدت نفسها متعبة ومرهقة، سكنت عن التفكر بالسجن وغرفه المفضِحة ، وبعد بُرهة سرحت بفكرها من جديد وخاضت معه في غمار التجربة الغامضة...

ورأت حبيبها وراء أسوار إحدى الزنزانات المُظلِمة يواجه مصيراً مجهولاً... لم تتوانَ في معانقته واحتضانه...ونظرت في عينيه فوجدتهما تحملان بريق الأمل الذي عُرِف به...وقرَّبت شفتاها من شفتيه ، وقبَّلتهما بحرارة وعطف لا يضاهيه أي حب أو حنان... وبعد أن ذاقت طعم فيه وأحست بالنشوة والروح الجاري في عروقه قالت له:

ــ يا حبيب القلب أين أنت...إنني تهتُ في متاهات الطريق إلى أن وجدتك...انهم لم يشعروا بي عندما دخلتُ إلى هنا...نائمون وغافلون عنا فلنهرب بسرعة ...

ومسكت يده وهو لا يزال يرقد في حضن الحبيبة ويريد معانقة الشفتين لمدة أطول...وهي تريد الهروب قبل أن يصحو الحُراس وجلاوزة السجن...، وبهدوء تام قالت له:

ـ أرجوك كفاك هذا...إن الوقت ليس في صالحنا...إنهم قد يصحون في أي وقت...فلنهرب قبل أن يحسوا بنا ويلاحقوننا...

وفي لمحة بصر تخطيا كافة القيود والأشواك المغروسة في طريقهما قبل أن يدق ناقوس الخطر ، وحملها حبيبها من بين ذراعيه، وطار بها بعيدا عن عالم الجلاوزة ومحل سلطانهم ودخلا معا بلد الزهور ، وأخذا بالجري من بين الأزهار المنتشرة في كل بقعة من ذلك البلد وهما يكتنفان الحب في أعماقهما وقلبهما يدق بسرعة فائقة... ويشعران بلذة الروح الأبدية والسرور المنبعث من بين جنباتها ، عالم غريب وغير مسموح العبور لكل معشوق " بل للعُشاق المخلصين فقط ، البراءة كلمة السر لفتح الأبواب المُوصدة ، والعفة عنوان يرتسم على وجوه الأحياء على شاكلة أنوار مدورة كالحلقات الحلزونية بألوان متعددة وحركات مستمرة... ووسط هذه المدينة رأت أبراجا وبيوتا مبنية من لآلي ومعادن نفيسة منوَّرة ويحمل كل ركن من أركان البنايات أنواراً لا تنطفئ ولا تخمد نورها بالظلمة العاتمة... ويسكن كل حبيب مع حبيبته داخل هذه البيوتات المنورة، كل على حدة ، ليلهم ونهارهم يحمل نفس الطابع ، ويمر الوضع بهدوء تام ، وتستمر الأزهار بالتفتح صباحاً ومساءً عندما يلتقي الحبيبان تنثر الأزهار أريجها العطرة ، ويصبح البلد قاطبة كالجنة بهدوئها ومنظرها ورياحها الندية والعطرة...

وهكذا تبدأ بداية لحياة أبدية وسط ربُوعٍ خضرة ومناظر تشتهيها النفس وتعشقها يوماً بيوم...

والرحلة في نظرها تبدأ بالهروب من واقع مأساوي ، وأسوار شائكة يحكمها سلاطين وحكام ظلمة يتحكمون في مصير الناس ويزجون بهم في السجون بمجرد إبداء الرأي أو أي معارضة سلمية لا تتعدى حدودها المرسومة ، وتظهر أبواق الدكتاتور وسدنته بتفعيل الأزمة وتفعيل الخطر المحدق ، وإظهار حالة من البلبلة أو وقوع زوبعة " قد تؤدي بالكراسي والمناصب إلى السقوط وانتهاء عهدها للأبد...

وكرد فعل تقوم السلطات باعتقال الأبرياء وتفرق بينهم ، ولا يجد الحبيبان بلداً يؤويهم ويحتضنهم أو يحسا فيه بأمان...فيقرران المغادرة بدلاً من البقاء وسط دوامة من الأخطار ، ويهربان معا للأبد نحو حياة أفضل ودنيا مختلفة، ويُسمى هذا البلد باسم الزهور وساكنوها بالزهراويين... فكل فرد من ساكنيه له قصة عجيبة تبدأ من هروبه إلى أن ينتهي به المطاف في هذا البلد العجيب والساحر...

وبعد هذه المغامرة الخطيرة والكاسرة للأسوار والحدود المصطنعة نهضت بعض الشيء على السرير وفكرت من جديد بمصير حبيبها وما آل إليه الوضع بعد اعتقاله ، أصابها حزن شديد ولكن تذكرت بيتا لأحد الشعراء عن الأمل وردَّدَته مرارا:

أُعلل النَّفسَ بالأماني ما أضيق

العيش لولا فُسحة الأمل

وقالت إثر ذلك:

ـ يا حبيبي إن قلبي مجروح بجراح البُعد عنك...أنا تواقة لرؤيتك واحتضانك ، وشم أنفاس خارجة من بين شفتيك...ها قد بدأنا معا كتابة أجمل قصة ، وقضينا معا أياما وليالي حلوة ومرحة... وكانت لحظاتنا عامرة بالحب والود والوئام...وقلبُنا يلف حوالي بعضنا البعض...أترجاك يا حبيبي ونور قلبي لا تبتعد عني فأنا وحيدة وسط دوامة مستمرة ، وبحر هائج ، وظلام دامس ، وأنفاس خانقة... لا تتركني أرجوك...كِدتُ أحترق شوقا إليك...فأعد اللحظات بأيام وشهور وسنين...ولا تمر علي الليالي إلا بالبكاء على ذكراك وصورتك ماثلة أمامي وفي مخيلتي دائما...

أُحبك بجنون...أُحبك من أعماق قلبي ، أنت أملي في الحياة ونور طريقي ودربي بعدما ذقت مرارة تجربة فاشلة... أُحبك ولا أستحي من قولها أمام الدنيا...وأخوض غمار الموت من أجلك..."

ثم طرأت على مخيلتها صور واهية تمثل حال المعتقلين وهم يلقون حتفهم واحداً تلو الآخر واكتأبت لحال حبيبها وقالت:

ـ أهدم الدنيا على رؤوسهم لو جرى لك شيءٌ...أقطعهم إرباً إرباً... لا أسمح لهم بأخذك مني وحرماني من السعادة للأبد...كنت منهم وأنا قادرة على الانتقام وأخذ ثأرك...أنت سلطان قلبي ونور بصري...لو فقدت السلطان والنور أُصيب بالجنون ...هذا أكيد...كيف لا أثور عليهم أو لا أُحاربهم مدى العمر...أية سعادة أشعر بها بعدك يا حبيبي ...بفقداني لك أموت ، واكتأب في ركن نائي بين أُناس ما هم بأُناسي، وبدار أهلها غُرباء عني...أنا منك ، وفيك، ولك...ولا أتصور فقدانك بهذه السهولة..."

ونهضت من السرير وجلست على الكرسي متأثرة بالحالات النفسية والحوارات المتعددة مع نفسها وأخرجت دفتر ذكرياتها وكتبت فيه هذه السطور:

"لم أهنأ بالسعادة طويلاً هذه المرة أيضاً ، وانبرى عائق شائك العُرى ، وفقدت السعادة بأخذ حبيبي مني...هو ليس كمثله من الرجال ، صحيح أن شكله مثلهم تماماً، لكنه صادق في حبه ، ورقيق الإحساس ، عفيف الأخلاق ، يحمل صفات فارس الأحلام الحقيقي " الذي تحلم به كل فتاة...فلحظاتي معه عامرة بالحب والبراءة والعِفة والوئام والوفاء" لما بنيناه من حب برئ وقصة جميلة تبدأ بشكل مفاجئ ، وقد تنتهي بالمأساة أو بعواقب قد لا تُحمد عقباها... إنني تائهة... شاردة الذهن ، فاقدة لمعاني الحياة ...أُعبر عن هذا الشعور والإحساس الغريب الذي يراودني بين حينٍ وأخر... انتظر عودته بفارغ الصبر ، وأحسبه في سفر قد تأخر وصوله لأيام عدة ، وأتساءل في نفسي متى نلتقي من جديد...؟!وكيف يكون هذا اللقاء بيننا...! ؟آه...آه...لقد سئمت من الانتظار لمجهول قادم من الغيب... قد يحمل خبراً مفرحاً أو فاجعة تحطمني للأبد وتجعلني شقية وبائسة...

يا حبيبي صحيح أننا الآن بعيدان عن بعضنا البعض ولكن حبك لا يفارق قلبي أبداً...إن حبك خرق شغاف قلبي ولا أحد يستطيع أن يتبوأ مكانك في قلبي...حتى أقرب الناس وأحبهم إليَّ " وهي أُمي وبقية أهلي...أنت سيد القلب وسلطانه...

وإننا أبرمنا عقد الزواج لأرواحنا قبل أن نبرمه لجسدنا...وتآلف روحانا للأبد ، فأنا وأنت نكون معاً في الحياة والممات...أرجوك يا فارس أحلامي، ويا أنفاس روحي لا تبتعد أكثر من ذلك ...أنا محتاجة إليك ، وحياتي بدونك جحيم لا يُطاق ، وموت زؤام... أُحبك يا الغالي ...وأظل انتظرك حتى آخر رمق من حياتي..."

وضعت القلم جانباً ثم نهضت، ولم تزل في مكانها " إذ سمعت رنين التلفون ، وفتحت باب الغرفة وهرولت نحوه ورفعت السماعة ، فسمعت مسؤول المنظمة يخبرها بحصوله على رخصة لها لزيارة المعلم المعتقل في المساء ، فيمكنها أخذ التصريح والذهاب لمديرية الأمن في حي "شورش "ورؤيته واطمئنان أهله عليه...

وبالغ المسؤول في صعوبة حصوله على التصريح بقوله:

ـ انك لا تعلمين بأية وسيلة حصلت على هذا التصريح...فرؤيتك للمعلم لزم مني تقديم خدمات مماثلة لمدير الأمن والمسؤولين الكبار هناك...لا أحد يقدم خدمات مقابل شكرٍ أو كلمات من هذا القبيل ، فالكل يخدمك مقابل خدمة أخرى...هذا الوضع عام ويشمل كافة الدوائر...ولكن لا يهمني إلا رضاك عني...

قالت بفرحة وسرور:

ـ سأحمل لك هذا الجميل مدى العمر...

ضحك المسؤول لكلامها وقال:

ـ لا...لا...أنا أفديك بعمري يا آنسة حنان...أنت لا تدرين مدى غلائك عندنا ، وبالذات عندي...

كانت تحس بالضجر من التكلم معه أكثر من ذلك فقد نالت مبتغاها لذا قالت:

ـ أشكرك سيدي الكريم...لحظات سأكون عندك لأخذ التصريح...إلى اللقاء...

ولم تلبث كثيراً إلى أن وصلت مقر المنظمة وأخذت التصريح وذهبت فوراً لمديرية الأمن.

* * *

لأول مرة في حياتها رأت بناية كهذه البناية من حيث حراستها وتصميمها وسكونها ونفور الناس منها...وتذكرت حديث شهزاد ذات مرة عن هذه البناية ورعبها في قلوب سكان المدينة ، فأشبهها بسجن باستيل الفرنسي " القلعة المُرعبة في التأريخ الدموي لأعتم العصور الفرنسية...! !لاح في قلبها خوف مجهول وأبطأت خُطاها قبل ان تصل لعتبات قلعة الموت...وتذكرت حبها الكبير لشهزاد فازدادت حرصها على الخوض في أعماق الأُتون المُظلمة ، وأبت الرجوع عن خُطاها، وتصرفت كمسؤولة عربية ومندوبة الحزب والقائد في مدينة القلاقل والفوضى العارمة...

فاتجهت نحو الاستعلامات وتكلمت باللغة الأُم مسيطرة على الوضع، وبعد أن أجرى موظف الاستعلامات اتصالا أتى رجل أمن من داخل البناية

لمرافقتها، فلم تفقد هدوئها أو توازنها لاقترابها من رؤية حبيبها ومشاهدتها له بعد مضي أسبوع على اعتقاله...

ورأت بأم عينها داخل ساحة البناية وسائل القمع الوحشي من عربات مصفحة وعناصر مجهولة الوضع، وتقدمها رجل الأمن المرافق لغرفة " فرأت الغُرف الصغيرة ، وفجأة سمعت أصوات المعتقلين وهم يصرخون لضربهم وتعذيبهم من قبل الزبانية...فشمت رائحة الجلود المحترقة وشعرت بالغثيان وفقدان شيء من جرأتها السابقة...وتماسكت نفسها من جديد واحتملت إلى أن وصلت لغرفة صغيرة فيها مكتب وكرسي ورأت ضابط الأمن جالساً عليه ورحب بها وقال للأمن المرافق:

ـ أحضره...

وفي غضون دقائق قليلة حضر شهزاد برفقة الأمن وهو معصوب العينين ومغلول اليدين وآثار الضرب والتعذيب ماثل على كل شبر من جسده العاري واللابس لثياب ممزقة ومقطعة...

أرادت السيطرة على نفسها أمامهم حتى لا تقع في خطأ ، وقالت بصوت متمثل:

ـ مرحباً شهزاد...كيف حالك...أهلك ورفاقك قلقون عليك...

وابتسم ضابط الأمن وقال:

ـ انه محظوظ لبقائه...فلو لا تعاونه مع الحزب لأصبح الآن في عداد الموتى...

وقالت تعقيباً على كلامه:

ـ انه من أكفأ المتعاونين معي...يومياً يكتب تقريراً ويرفعه لي...وقد بحثنا ذلك مع السيد عدنان عند اعتقاله...وفقدت مخبراً كفوءاً في الحي الذي يسكنه وبين زملائه...

وقال الضابط بثقة عالية:

ـ نعم آنسة حنان...بعد أن أجرى السيد عدنان اتصاله تغير وضعه وتعاملنا معه كرفيق حزبي...وهذا سوء تفاهم، سيفرج عنه في غضون أيام...

واحترقت الفتاة في داخلها على حبيبها، ووضعه وتماسكت نفسها بصعوبة وقالت:

ـ عزيزي شهزاد كل شيء على ما يرام ...فالحزب ولي أمرنا ويجب أن تأخذ هذا الأمر بروح رياضية...

ولم تحرك الكلمات والاطمئنان لسان شهزاد وبقي ساكتاً وعندما ألحت عليه الفتاة بالرد، قال ضابط الأمن:

ـ دعيه...فانه عندما يطلق سراحه يتكلم، فهو الآن في وضع لا يمكنه التكلم...

وبدا الخوف يظهر من خلال قسمات وجهها على حبيبها المنهار أمام عينها، وقبل أن تتفوه بكلمة قال الضابط:

ـ لا تخافي...سيتعدى الأزمة بسهولة...

وإثر ذلك أومأ للأمن بأخذ شهزاد لزنزانته ثم قال:

ـ اطمئني...سيفرج عنه قريبا...

وشكرته الفتاة بقولها:

ـ إنني مُمتنة لخدماتكم وأشكركم من أعماق قلبي...وداعاً

+ وداعاً...

خرجت من البناية وفي إحساسها وقلبها غيض وكراهية للنظام المجرم والقائد والحزب الملعون... وتذكرت حبيبها ولقاءها به دون أن تستطيع معانقته وتخفيف ما آلم به وما أصابه جراء الوحشية والهمجية المتبعة داخل السجون المُرعبة...آه...لو كنت حرة لأخذته بالحضن وداويت جراحاته وسهرت عليه ليلاً ونهاراً إلى أن يخرج مُعافى...لماذا لم أُعانقه...من يدري انه سيفرج عنه...انهم أشرار وعديمو الأخلاق والمروءة... لا ...لا...تصرفت بشكل منطقي فيمكن أن يكون الضابط صادقاً في كلامه...فهو تفوه لي بذلك بعد اطمئنانه وذكر كلام عدنان، وهذه المخابرة بمثابة تقرير عن حاله...وماذا عساي أن أفعل غير ذلك...؟انهم أشرار لا بد من التمثل عليهم بغية إطلاق سراحه...آه...كم أنا مشتاقة لمعانقتك...ماذا فعلوا بك يا حبيبي...؟!"

وعبرت الشوارع المُكتضة بالسيارات والمارين وهي تفكر في حال حبيبها ومصيره بين أيدي مصاصي الدماء البشري ، ورغم ذلك كان الأمل يراودها بالإفراج عنه قريباً، وتذكرت لحظة اللقاء بينهما بعيداً عن أعين رجال الأمن المعروفين بالتصفية البشرية " بحجة الحفاظ على سلامة القائد وأوهامه في التمرد والعصيان المدني ...

10

نفذ صبرها بعد مُضيِّ يومين آخرين على اعتقال شهزاد ولم يطلق سراحه ، وهمَّت أن تحاول بنفسها وتسعى لدى مُدير الأمن ليطلق سراحه...

فكَّرَت ملياً بالأمر فوجدت صعوبة في ذلك وتخطيا لتعليمات الحزب ولاسيما رئيس المنظمة ، ويمكن لهذه الخطوة عرقلة سير الإفراج عنه ويفشل الأمر من أساسه وتظهر الفتاة على حقيقتها أمام رؤساء ومسؤولي الحزب...

كانت مُنشَغِلَة في التفكير بطريقة أُخرى للإفراج عنه" إذ سمعت خبر إطلاق سراحه من رئيس المنظمة، فاتجهت مُباشرة إلى بيته فرأته شبه مُنهار... وآثار الضرب بالهراواة والحرق بالمكواة إضافة إلى النوبات الكهربائية تبدو على جسده ...!

وظلَّت بالقرب منه طيلة اليوم تحاول مداواته وتخفيف آلامه...

وفي عصر مُتاخر انفردت به واحتضنته وهي تكابد الآلام وتحاول مُبادلة حبيبها نفس الإحساس...وبتأنٍ وصعوبة بالغة قال:

ـ إنهم مجرمون ، لا تُصدقين ما فعلوا بي...!

كان رأسه على صدرها، وهي تبكي وتداويه بأرقى طريقة وأندى إحساس وقالت لتهدئته:

ـــ يجب أن لا تفكر بأي شئ سوى صحتك...فأنت تحتاج للراحة ونسيان ما تعرضت له...أرجوك لاتفكر ولا تبح لأحد بما رأيته...انهم أشرار لا يتركوننا وقد يعتقلونك مرة أُخرى إذا سمعوا بحديثك عن مُعتقلهم المشؤوم...

بعد جُهدٍ وتأنٍ قال:

ـــ حنان أنا محتاج إليك...أرجوك لا تتركيني وحدي ...أشعر بإحساس غريب يراودني...أشعر بالوحدة والاكتئاب والفشل والبؤس والشقاء...معنوياتي قد انهارت وغير قادر على مواجهة الواقع وحدي...

قبَّلت رأسه وقالت:

ـ أنا دائماً أظل بالقرب منك...وسأبقي معك الليلة...ولا أتركك الى أن تتعافى...

أثناء ذلك فتحت الأُم باب الغُرفة فرأتهما بهذه الصورة ، وحاولت الفتاة الابتعاد عنه " إلا أن الأُم أشارت إليها بالبقاء كما كانت وما لبثت " أن خرجت وتركتهما...فالفتاة بشعورها وحبها الأصيل ملأت الفراغ الحاصل في نفس حبيبها، وبكلامها وحبها تداوي الجُرح العميق وتحاول تهدئته ومساعدته للخروج من الكبوة العارضة والأزمة المتشنجة...

سهرت الليل بطوله على رأس حبيبها ، ولم تذق طعم النوم أو الراحة ، ومع طلوع تباشير الصباح فقدت توازنها ونامت بالقرب منه وهو قد تحسن بعض الشيء ورجع إليه قدر من عافيته...وأحس بالأمان لقرب حبيبته

منه، وبقيا معاً دون أن يزعجهما أحد حتى الظهيرة ، صحت من نومها ورأت حبيبها ينظر إليها بإمعان وقد تحمل النظرات حُباً جماً ومعاني لا تحصى...

اقتربا من البعض وبقيا ينظران إلى عيني بعضهما بتأنٍ وهُما يتلذذان ويتبادلان الحب عبر النظرات المشحونة بالحب والبراءة ونوع من الإعجاب الفريد...

ومع حُبهما الشديد وشغفهما للاقتراب إلا أن الأدب والمحافظة على تعاليم الدين والأخلاق جعلتهما على حالهما وحبهما يدخل طوره العفيف ويصطبغ بصبغة الأدب، والعِفَة تجعله محل إعجاب الأهل واحترام العارفين بهذه العلاقة الحميمة...

أخذت الفتاة إجازة من المدرسة لمدة ثلاثة أيام، ولم تترك حبيبها طيلة الأيام الثلاثة ليلاً ونهاراً...واستعاد شهزاد عافيته شيئاً فشيئاً، وخرج من هذا الوضع الحرج، وأخذت الأحداث والوقائع مجراها في نفسه ، وبرزت له المخاطر على شكلها الحقيقي ... وتكلم مع الفتاة مُعبراً عن ما شاهده أثناء إعتقاله بقوله:

ـ حنان...هل تعلمين قبل تعرضي للاعتقال كنت أصف هذه القلعة المُسماة بـ (ئەمنه سوورەكه) بـ (باستيل) الفرنسي من حيث شناعتها ، ولكن ذلك دون تجربة ومشاهدة للوقائع الجارية ، وإنما بمجرد حديث الناس وخاصة المعتقلين فقط ...وبعد اعتقالي جرّدوني من إنسانيتي ، فهذه القلعة مبنية أساساً للتصفية البشرية...فيها نساءٌ وأطفال وشيوخ ، إضافة إلى الشُبان الكُثَر المعتقلين من كافة أرجاء كوردستان...وتعتبر

الإدارة والجلاوزة من أمهر الملطخة أيديهم بالدماء البشرية ومجرمين محترفين...فالإدارة مُكونة من مجموعات إرهابية تمارس الإجرام تحت مظلَّة الحزب ، وصُممَت غرفهم على شاكلة السجون النازية والروسية ، فالمعتقل ينقل للطابق الأرضي الموصول بعنابر مجهولة ومتروكة أو بالأخص مُهْمَلَة...يُشرف عليها المجرمون المحترفون ويقومون بممارسة أبشع أنواع التعذيب فيها ، ويبدأ بالضرب بطريقة بَشِعَة ، وينتهي بكوي الجلود والإحراق بالنَّار أو وضع المُعتَقَل في بركة من الماء المُثَلَّج حتى تخرج روحه وتفارق الحياة...!!

هذا إذا نجا المعتقل البائس من مراحل التعذيب البدائي المتكون من رفعه وتعليقه بالكلاليب الموضوع لهذا الغرض ، ومن ثَمَّ وضعه في غرف صغيرة الحجم بحيث لا يستطيع المعتقل الرقود أو حتى الوقوف على رجليه ، ويبقى مُحْتَجزا فيها لأيام بلا طعام أو شراب أو شيء يسد رمقه به...

حبيبتي ...إنني مُحطم تماماً، أحس بفقدان إنسانيتي ، وبصدد قرار قد لا يعجبُك...

وبحالة مؤثرة تحت وقع المشاهد المُرعِبَة سألته:

ـ ماذا تقصد ؟

+ أقصد مُغادرة المدينة والعيش في إحدى القُرى التي فيها أقربائي ومعارف أهلي...

ـ ولكن هذا قـرار صـعب ، لا أحتمـل البُعـد عنـك ، وهـل تتركـني بهـذه البساطة ؟ وما مـصير الحُـب الـذي بنينـاه ؟ لا...لا...أرجـوك لا تفكـر في تركي...

+ لا أتركك...يُمكننا التزوج والعيش هُناك...وبصراحة لا أرغمـك علـى عيشة تأبينها ، ولكن بالنسبة لي لا أحتمل العـيش بعـدما رأيـت وتعرضـت له...سأغادر المدينة في أقرب فُرصة...

اقتربت منه وقالت دون شك أو ارتياب:

ـ سآتي معك...نتزوج ونظل معاً...

+ هذا قرار صعب بالنـسبة إليـك ، تفكـري في الأمـر بتـأنٍ ولا تتـسرعي أرجوك...فالحياة هناك صعبة للغاية ولاسـيما لفتـاة تربـت في المدينـة، ولم تألف العيش في قرية نائية ترزح تحـت قـصف القـوات التابعـة للنظـام ، وفي دار مبنية من طين وقرية بعيدة عن مظاهر العمران والحضارة...

بثقة تامة وبلا تردد قالت:

ـ أنا معك أينما كُنتَ...سأتعود على العيش هناك...لا تخف ، مادُمنـا معا نتخطى كافة العوائق والعقبات ...

+ أخـاف أنـك تـسرعت في أخـذك لهـذا القـرار ... بهـذه الخُطـوة قـد تعرضين أهلك لمخاطر الإعتقال...

صمتت قليلاً ثم ما لبثت أن قالت:

ـ سنتدبر الأمر بشكل طبيعي...أُدبر أمر رجوعي لبغداد كنقل الوظيفة بحجة مرض أُمي ، ومن ثَمَّ نتزوج ونذهب لأي مكان تختاره...

+ المُهم أن لا يحسوا بنا...

ـ نعم ، يجب أخذ الحيطة والحذر " فالخطوات محسوبة علينا ، سـأرجع لبغداد لأُفهم أُمي الأمر...

+ لماذا لا تأخذين أُمي وعمتي معك ، ولإتمام مراسيم زواجنا...

ـ فكرة جيدة ، ولكن أما تأتي لبغداد...؟فـأُمي تحـب أن تـرى عـريس ابنتها ...

+ في هذه الحالة أنت ترجعين وحدك ، وبعد أيام سـآتي أنـا برفقـة أُمـي وعمتي ونتمم مراسيم زواجنا...

ـ هذا أحسن...

+ حسناً ، سنتدبر الأمر حسب ما اتفقنا عليه...

وتعانق الحبيبان من جديـد وهمـا يتمنيـان كـسر الحـاجز الواقـع وبنـاء الحياة الزوجية ، والخروج من تلك الحالة المقلِقَة وغير المستقرة للجميع...

* * *

لم يمض على مغادرتها لبغداد سوى شهور عِدَّة ، فرجعـت شخـصاً آخـر غـير سـابقتها ، وتكمـن الأحاسـيس الإنـسانية في قلبهـا ، قطعـت الطريـق بالتفكير في حبيبها وليالي شهر العسل وقضاء أحلى اللحظات في ظِل الحـب العميق والأصيل بينهما...

كانت الفرحة تغمرهـا والـسعادة تمـلأ قلبهـا ، ولإِكمـال وبنـاء تـصورها الجديد طعم خاص ، الإِنسان محور نظرها دون النظـر للقوميـات و الأعـراق المختلفة...أحبت الإِنسانية بقلبٍ حنون ونظرة واسـعة...أبـدت اشمئزازهـا من الحزب والتـصور القـومي الـضيق ومـا يمارسـه مـن ممارسـات تعـسفية

وقمعية بحق الشعب الكوردي في المُدن والقُرى، من تهجير سكانها واعتقالهم وتصفيتهم دون هوادة...

تركت تفكيرها بحال الكورد وبلدهم جانباً ، وفكَّرت بكيفية مواجهة أُمها ومصارحتها الحقيقة ، ولكن ليس كُل شيء ، المهم أن تجري الأُمور حسب العادات والتقاليد الجارية ، ومن ثَمَّ تُغادر بغداد وقد تكون للمرة الأخيرة في حياتها دون رجعة ...

وماذا سيكون مصير العائلة عندما يعلم الحزب إنضمامها للتمرد الحاصل في الشمال؟ لماذا لا تستمر بالنشوة والفرح دائماً، وتظهر العوائق الفجائية والإِحتمالات غير السارَّة... وتنتهي الأمر بالمأساة... الحزب هو مصدر الشر في العراق ، وبؤرة الإِرهاب ومصنع لأخراج النماذج اللاإنسانية في المنطقة...

دارت برأسها ورأت مرة أُخرى مظاهر الحرب وما آل إليه الوضع في بلد البترول أو الذهب الأسود ...فالناس يزدحمون في طابور طويل للحصول على أبسط حاجياتهم من نفط أو بنزين أو أية حاجة يومية ضرورية... وتَدمير البُنية التحتية للبلد ، وأصبح العَداء واضحاً بين الشعبين العربي والكوردي...ألم يقاوما معاً الاحتلال الاستعماري طيلة سنوات عِجاف...وعاشوا جنباً إلى جنب رُفقاء السلاح والنضال المُشترك ضد كل معتد آثم تعدى على البلد...! ؟ ولماذا نسي العربي مواقف الكورد منذ إسلامه وحتى اليوم من تقديم خدمات جليلة بإمداد الأُمة بعلماء أفذاذ وقادة أكفاء؟ ولكن المواطن العربي بريء من الحُكام ومؤامراتهم الخبيثة...إنَّ حاله كحال العاجز عن التدبير، والمُسَلَّم أمره لواقع خارجٍ عن

إرادته...وبالأحرى لا حول له ولا قوة...وكثيراً ما يقع تحت تأثير أهواء الطغاة...وسياساتهم الخاطئة والمغرضة ضد الشعوب...

ودائما ما يقع الأبرياء في حبال ومصيدة هؤلاء المُجرمين الكِبار " رؤساء الأحزاب والحركات القومية الضيقة ويقدمون تضحيات جِسام نتيجة لنظراتهم الضيقة وتصوراتهم الشوفينية ، وللغوغائيين دور هام وجوهري في تمكين حركات الطغاة ومؤامراتهم بحق شعوبهم...فلماذا يُكره الإنسان جنسه الإنساني ويتعامل معه كخطر مُحدِق أو وباء قاتل ويحاول استئصاله...أليس في العيش سوية مظهر حضاري ونموذج إنساني فريد؟! ولكن تلك المعادلة الخاطئة يُكمِن وراءها أُناس تربوا في بيئة مبوأة بالمرض وشتى أصناف العُنف والتصفية...وتبدأ من الطفولة وتلوح في الآفاق آثارها المدمرة في الكِبَر، وعندما تسنح له فرصة أو مناخ مماثل وملائم، وتنتشر وتظهر في شكل عِدَاء للإنسان...وأحياناً ما تبرز عوائق نفسية للمجرمين ويبدؤون بالتصفية من داخل أحزابهم وبأقرب الناس إليهم، ومن ثم يصل الأمر بعد ذلك لخارج أقوامهم بحجج واهية وخالية من الصِحَة... وتقدم الشعب كبشاً للفداء وضحية للتصور الهمجي والحماقات الفردية أو الحزبية...!

هكذا تجري الأحداث في الشرق على قدم وساق...!أحزاب جائرة وأُناس أبرياء، وتبدأ قصص المآسي سِجالاً لا ينتهي ووقائع تُكتب سطورها بدماء الأبرياء والشعوب المغلوبة على أمرها...

وحري بالشعوب دائما مؤازرة الطغاة في مواقفهم وهفواتهم المدمرة...!!فالحرب التي يرزح تحت عبئها الشعب في العراق نموذج حي

للصورة السابقة ، ديكتاتورية القائد البلهاء، وإطاعة الضعفاء أدّت لوقوع كارثة في البلد، وتشابك المشاكل فيما بينها وتصفية الحسابات القديمة والأطماع الاستعمارية ، وبروز مشاكل الحرب ونشرها بين الأُسر العراقية جمعاء بشكل لا تمحى آثارها إلا بعد مرور عقود من الزمن...

وتُسمى المأساة بالبطولة، وتُضاف لسجل الدكتاتور مآثر وأمجاد عِظام تُسَطر بماء الذهب وتذاع عبر أثير الإذاعات والشاشات، وتبدأ قصص التضليل والخداع بأرواح الشعب ومقدراتها للضياع والفناء... وتمر سنون وسنون على الوقائع ويصبح الأمر مألوفاً وتنشأ أجيالُ مخدوعة بكبرياء الطغاة وأبواق السدنة وصمت الشعب على ما يفعل بأبنائه وثرواته بيد تلك الزمرة اللعينة والمجرمة...!!

إكتملت الصورة العراقية في مخيلة الفتاة ونضج تفكيرها بحيث ترى الأُمور ناصعة كوضوح الشمس ، وغمَّت لحالها السابق وتصديقها لأقوال الحزبيين الفاشلين واللاإنسانيين ...وكيف حطَّمَت أسوار المجرمين وقائدهم منذ أن وطئت قدماها ربوع كوردستان وتعرفت على المعلم المثقف والمؤدب من بين أقرانه وزملائه المعلمين...؟!

دخلت السيارة مشارف مدينة السلام ، وتفكيرُ الفتاة يدور حول هذه المسائل ، ورأت بغداد جميلة كما كانت عليه دائماً... تبدو كالعروس والملكة المُجلَّلة في ثيابها البيضاء... وجمالها يبسط بجناحيه طولاً وعرضا وتضرب عروقها الأصيلة في شعاب الزمان... ويبدو جمال بغداد آخذاً شعاعه من الأزل " فجمالها يتجدد عاماً بعد عام وجيلاً بعد جيل...ومع طغيان المظاهر العسكرية عليها وحكم الجلاوزة إلا أنها ظلت

جميلة وتدب فيها الحياة والحيوية عند إشراق يومها، وتمتلئ سكوناً وهدوءاً ليلاً عندما تغرب الشمس ويحل الظلام وتبعث الأنوار شعاعها على الشوارع والمحلات والأبنية العريقة ، وتجمع شمل العوائل على مائدة العشاء وهم يستقبلون ليلهم في مدينة عريقة كانت رمزاً للعلم والثقافة ، ومنارة لأعظم حضارة شهدها التأريخ في عهوده الغابرة...

أحست بحبها العميق لبغداد ، وقلبها يرفرف في سمائها وتعبر عن الحُب لها بأجمل إحساس في نفسها: "يا مدينتي الجميلة ها أنا قد عُدت إليك...أعشق سمائك وهواءك وماءك وكل شئ فيك...رغم جمال المدن الأُخرى وغلبة جمال الطبيعة إلاَّ أن قلبي دائما يدور حولك... وحُبي لك يتجدد كل لحظة فأنت أُمي الحنونة التي ولدت في أحضانها ، كيف أنساك يا أُم المدن ويا شمس الشرق ومهد الحضارتين...!؟".

مسحت زفرة على خديها وهي تحس بذاك الإحساس والنشوة تسيطر عليها برجوعها لمدينتها ورؤيتها لعائلتها ومسقط رأسها...

نزلت من السيارة وباتت على مقربة من بيتها وإستأجرت سيارة، ثم بعد لحظات قليلة وقفت على عتبة بيتها، وإذا بالعائلة تطير فرحاً وطرباً بعودة الغالية ، وتستقبلها بحفاوة ، والأُم تسقط على الأرض مغشية عليها لرؤية ابنتها البارّة راجعة سالمة من ديار بعيدة وموطن غريب الأطوار والمعالم في نظرها...

وتبدأ الفتاة بلهفة وشوق في إحتضان أُمها ، وبعد هدوء عاصفة العواطف المُتأجِجة تروي ما شاهدتها خلال هذه التجربة العجيبة من حياتها...

11

اجتمع شَمْلُ العائلة برجوع ابنتهم ، وأقبل الجيران يمرون على البيت للترحاب بالفتاة العائدة من ديار الغُربة...والكُل يسألُها عِدة أسئلة عن مارأته وتعايشه من أنماط الحياة في تلك البُقعة من الأرض... فقد سمعوا كثيراً عن الاشتباكات والأيدي التخريبية في السليمانية ، والحاق الضرر بالمُنشآت العامة والمرافق الحية للدولة...

تخطَّت الحبائل السياسية والمصائد المُغرضة ، وتحدثت بشكل عام متخطية الوقوع في أخطاء قد تؤدي للهاوية وضياعها للأبد...وبِذكاء وفِطْنة تمكنت من الإفلات منهم وتصوير الوقائع كحدث عادي ناشئ من الحرب وويلاتها...

وكان من أقرب النَّاس إليها أُختَاها ساهرة ومها " اللتان حملت لهما حباً جماً واحتراماً يفوق التصور...

قبل أن تبوح الفتاة لأُمها بحبها أخبرت أختيها تفاصيل العلاقة الحميمة بينها وبين شهزاد...وتحدثت عن كل ما تتعلق به من صفات حميمة ومواقف إنسانية لم ترها من قبل ، وعبَّرت عن حبها العميق له وتواعدهما الزواج في أقرب فرصة...ولكن بقي شئ في نفسها دون ذكرها لهم وهي مسألة هجرتها لإحدى القرى والعيش هناك... فاعتبرت هذه المسألة صعبة

على قلوب أفراد عائلتها، وقد يضعون عراقيل لها " في حين تريد إتمام الأمر بمباركتهم وبأسرع وقت...

استغربت الأُختان لعلاقة أختهما الكُبرى وحبها للمعلم الكوردي ، وكانتا تصغيان لحديثها بإمعان وتذوق ، وتكبر شخصية شهزاد في نظرهما حتى تمنتا نفس القَدر والحظ مع تجرعهما لآلام البُعد والغُربة...

وفي غضون أيام قليلة واجهت الفتاة أُمها بالحقيقة واعتبرت الأمر منتهياً بالنسبة إليها ، ورغم معارضة الأُم أول الأمر إلاَّ أن حديث الفتاة لـيَّن قلبها وأحَبَّت عريس إبنتها من صميم قلبها لما سمعتها حول شخصيته وعائلته...

وأخذوا كافة التدبيرات اللازمة قبل أن يصل الضيوف من السليمانية...

بدأن بتنظيف البيت وترتيب الأثاث من جديد وشراء الحاجيات الأساسية وأخذ الاستعدادات اللازمة لمثل هذه المناسبات ...وبناءاً على طلب الفتاة من أُمها اشترت لنفسها لباساً جديداً وكسرت الحِداد المُتَمَثِلَ بملابسها السوداء ، ولأول مرة بعد سنوات من استشهاد الوالد غمرت الفرحة قلوبهم وأحسوا بتغيير يطرأ عليهم من خلال هذا الحدث السارّ...

وبُعَيدَ رجوع الفتاة بأيام قليلة وصل شهزاد برفقة أُمه وعمته بغداد ووجدوا البيت دون عناء وتعب " واستقبلوا بحب ووئام قلَّما تجد له مثيلاً...

وتمت مراسيم الخِطبة والزفاف معاً، ولبُعد الطريق والمدينتين والوضع المأساوي للبلد خفف أهل الفتاة الأمر عليهم، وبعد انتهاء المراسيم المعهودة استأجر شهزاد سيارة خاصة لنقلهم جميعاً إلى السليمانية...

وفي يوم ماطِر من أيام الشتاء زفَّت العروسة لعريسها بمباركة الأهل والجيران والأصدقاء...وكان الحدث بالنسبة لأهل الفتاة رغم كونها فرحة إلا أنها لم تخل من البُكاء والشعور بفراق أعز فرد للعائلة...وتجدد ذكرى موت الوالد والأيام العصيبة التي مرَّت عليهم وبقي الصمت والبُكاء سيدا الموقف عند المغادرة، والمشهد في نظر الفتاة وداعاً للماضي وأيامه المُرَّة والحلوة...

بكت الفتاة عندما حضنها أفراد عائلتها وودعوها ، وعند المغادرة نظرت من إحدى زوايا السيارة " فرأت موت ذكرياتها وذبول أيامها يجري بسرعة وهي تبتعد عن بغداد رويداً رويداً...

أخذت الذكريات طريقها المعهود واغتم قلبها لكل حدث أو ذكرى قضتها، وأخذت طريقها للنسيان أو تجرُع مرارة أثرها في قلبها الرقيق...

ودعت مدينة السلام وأهلها وقاطنيها على ضفتي دجلة الماثلة في مخيلتها أجمل الذكريات وأحلى أيامها وداعاً نهائياً دون رجعة...

يا للحياة...!! كلها عناء ومأساة ليس لها حدود ولا مدىً...فما أصعب لحظات الفراق والبُعد عن الموطن بترك الأحياء ومحل الذكريات والأماني الصغيرة والكبيرة... ولموت الماضي وشهود مراسيم دفنه وقع أليم على القلوب الحية...فما أرقى الإحساس المُعبر عن تلك المشاهد والأحداث تتجدد على نفس المنوال والوتيرة...

ويحرق القلب شوقا وحبا لها وسـط ألم يُـصيب أعمـاق القلـب ويجرحـه أيما جرح...والمرء المسكين لا يجد بُداً سوى إطلاق الزفرات بصمت وأنين كالطفل البـاكي علـى فـراق أُمـه أعظـم كـائن في الوجـود...وشمـس تغيـب وأخرى تظهر والأيام تتوالى والسنون تمُر بسرعة فائقة دون الوقوف لحظة ، وتبقى ذكريات الطفولة والصبا والموطن ومحل الـسكن دائمـاً ماثلـة أمامهـا لتجدد الحنين والشوق والحُب الدفين...

انفجرت الفتاة باكية عنـدما غـادرت الـسيارة مـدخل المدينـة ، وأصـيب رُكاب السيارة بالذهول ماعدا شهزاد فهو الوحيد من بينهم يحس بما أصاب حبيبته وما مدى صعوبة الأمر بالنسبة لأي إنـسان يخـوض نفـس التجربـة ويطرأ عليه واقع كهذا...

إن حال الإنسان لا يستقر على وتـيرة واحـدة " رحلـة تبـدأ مـن ولادتـه وحتى الممات وهو غافل عما تتعـرض لـه ، وقـد يخـرج مـن الـدنيا وهـو لا يدري أين موطنه ، وهل يملك الدنيا ويجعـل هويتـه أوسـع مـن أن تقـف في حدود دولة أو قومية معينة... فانتماء الإنسان لمجتمع إنـساني أوسـع مـن أي انتمـاء آخـر... وتحتـاج للمُثـابرة وعـدم التخلـي عـن المبـادئ العاليـة للإنسان مهما كانت الضغوطات الواقعة والحاصلة ...

والفتـاة بشخـصيتها القويـة وبـسعة تفكيرهـا كـسرت حـواجز الحـزب وتصوراتهم الضيقة " فاتجهـت نحـو الإنـسان كمحـور الحركـات ، واختـارت عيشتها بنفسها، وان كان الفراق ومعانيه ولحظاته المُرة والعصيبة لها وقـع خاص ، وبالذات مشاهد الطفولة وحُبها للعائلة وموطن ولادتهـا وصـباها إلاَّ

أنَّ قوة الشعور الإنساني والحب والفناء فيها جعلتها تبدو أقوى من العوائق والتوجهات الطارئة والتصورات الخاطئة للقومية والمجتمع الإنساني...

وانطلاقاً من إيمانها العميق بالحُب والفناء في الحبيب سيطرت الفتاة على نفسها ، ومع ابتعادها عن بغداد إلا أن الأمل راودها من جديد لبناء أُسرة وعائلة نموذجية تعيش في أية بُقعة أينما كانت بأمان، وتمارس الحُب مع حبيبها يوماً بيوم...

ونظرت من الخلف لحبيبها وقلبها يكن له حُباً عميقاً وإحساساً يجعلها تشعر بالنشوة والفرح... فتخيلت الليل وكل لحظة جميلة يقضيانها في ظل حياة شرعية وعلاقة نظيفة وبمباركة كلتا العائلتين...غمر قلبها بذلك الإحساس وهي تُجسد اللحظات الحارَّة والتي تجعلهما يغفلان عن الدنيا وما فيها... ينفردان في مشهد فريد النوع والوقوع ، العروسان يتخطيان سُلم الارتباط الروحي والجسدي ويقطعان عهد العزوبية والوحدة في ليلة تُسمى ليلة العُمر أو ليلة الليالي...

وكان تفكير شهزاد أيضا مماثلاً لتفكير حبيبته مع فوارق بسيطة لرؤيتهما وارتباطهما المثالي...

ولم تمض غير ساعات معدودة " إذ وصلت السيارة للسليمانية سالمة تحمل أجمل عروسين ، وبدأت عائلة العريس وأقاربه بالزغاريد والرقص طرباً واحتفاءاً بوصول موكب العروسين...وولى ذلك اليوم حاملاً للفرحة والسعادة للجميع...

وبقي البيت خالياً للعروسين ، ومكاناً آمناً لقضاء لحظات تاريخية فيه...

وخلو البيت في هذه الحالات كان أمراً عادياً لدى بعض الأُسر في السليمانية، ففي ارتيادهم الفنادق تقييد لحريتهم ويجعلهم يتبعون سياسة معينة إرضاءاً لصاحب الفندق والمقيمين فيه...

وأُم شهزاد آثرت البيت على الفندق وغادرت برفقة أهل بيتها متوجهة لبيت أختها والمبيت عندهم لمدة ثلاث ليالٍ كعادة متبعة...

واوَّلُ ما أحسا بمغادرة الجميع قاما بتكرار الخطوة الأُولى لحبهما وهي النظر بعمق في العينين والغوص في أعماقهما...

ومرت اللحظات جميلة وفريدة ، وما أن جهدا قال شهزاد بصوت منخفض:

ـ هل لي بالتعبير عما أحس به تجاهك...؟

احمرت وجنتا الفتاة وقالت رداً عليه:

ـ يا سيدي ونور عيني ...الزمن في هذه اللحظات واقف ...لذا أسمح لك بالتعبير وأن تقول وتقول ما تشاء...

بقي على حاله دون تغيير وبهدوءٍ تامٍ قال:

ـ أهم ما في الأمر إنني أُحبك...فقبل لقائي بك كنت دائما أحلم بفتاة مثلك...أحلم معك وأتحدث إليك...فحبي الأول كان من جانب واحد...كنت أتخيلك في صورة تلك الفتاة... وبعد أن تزوجت شعرت بهمٍ كبير ونهاية تجربة ميتة قبل ولادتها...وبرؤيتي لك تجدد أملي ومن أول نظرة أصبت قلبي وكنت أكن لك الحُب ، ولكن فقدت الشجاعة والجرأة فأنت أعطيتني هذه الجرأة ، وهنا أحب تبيان نقطة هامة ...صحيح انك جميلة وفاتنة إلا أن بريق عينيك محل إعجابي فأنت بالنسبة لي كنت موجودة

قبـل أن ألقـاك...ودائمـا أشـجع نفـسي في الخيـال للتعـبير عمَّـا يجـول بخاطري...

نظرت الفتاة نظرتها المعهودة وقالت بخجلٍ وحياءٍ:

ـ يا سيدي وحبيب قلبي...كنتَ أيضا فارس أحلامي، وما هي التجربة السابقة إلا وقوعي في شِراك خاطئ ، احتسبته أنت فلدغتني كالحية وها أنا أخجـل مـن وضـعي هكـذا... وأتـصبب عـرق الخجـل والـشعور بالنـدم...سـامحني ...آهٍ مـن مخلفـات هـذه العلاقـة المُـشينة والمخذلـة وجراحاته العميقة في قلبي...آهٍ ...وددت تقديم نفسي كباكر لا أرملة...

بكت من شدة شعورها بالحرج والعار إلا أن شهزاد مسك يـديها وقبَّلـها ، ثم مسح الزفرات الحارة على خديها وقال:

ـــ في نظـري أنـت بـاكرة ، أرجـوك حـاولي الـسيطرة علـى الـشعور السابق...لا تفسدي الليل أرجوك فلا زلنا في بداياته...

لفت يديها حول عنقه وقبل أن يبادر هو بادرت بتقبيله وبعـد إشـعالهما فترتا لحظة قالت:

ـ أحبك...أحبك...يا روح القلب...ويا من تبوأت عرش القلب وبسطت سلطانك عليه للأبد...تخليت عن إرادتي " فشبيك ولبيك وأنا بين يديك...

ضـحكا ضـحكة فـاترة ثـم رجعـا كمـا كانـا، ورقـصا في الغرفـة بطريقـة رومانسية ، وهما متعانقان وأثناء ذلك قال شهزاد:

ـ إن هذا الرقص أروع ذكرى للعروسين...

+ لماذا ؟

ـ لأن هذه الليلة تحمل طابعاً مميزا ولابُد للإنسان من تنويع حركاته فيها ...والرقص الرومانسي ليلة الزفاف بداية حيَّة لإحياء الليل بأكمله والسهر إلى وجه الصُبح...

+أتراني راقصة بارعة ؟ وما رأيك في رقصتي واستجابتي لحركاتك؟

بثقة عالية قال:

ـ إنك حقا بارعة في الرقص ، لا أتقنه مثلك ، ولكن لا بأس ...

+ لا بل أنت أروع مني ...

رجعت الفتاة خطوات، ثم رجعت كما بدأت واعتذرت بقولها:

ـ أعتذر عن ذلك أُحب هذا المقطع الموسيقي وأنا أرقد في حضنك وأُمارس الحُب لأبعد مدىً...

ثم رقصا على أنغام موسيقى هادئة في تلك الليلة الفريدة وحدهما دون رقيب أو شاهد ، وكسرا هدوء الليل بصوت وقع أرجلهما، ورقصا إلى أن التقيا كجسدٍ واحد...

وبهدوء تام لم يعد بينهما سِترٌ وحاجزٌ يمنعهما من الاتصال والاقتراب أكثر ، وأصبحا جسداً واحداً ، وسهرا لوجه الصُبح إلى أن غلبهما النوم وهما مُطمئنان للحُب وكل ما جرى بينهما...

* * *

قبل أن يصحو العروسان وصلت الأُم للبيت كي تطمئن على الوضع وتقدم لهما الفطور ، كانا راقدين في نوم عميق بعد قضاء سهرة رومانسية وقضاء أحلى ليلة في عمرهما...

كان شهزاد أولُ من استيقظ ، فنظر لمحاسن جسم زوجته وهي كأجمل مخلوقة راقدة معه في فراش زوجي طاهر...

واستأنس بالنظر إليها وبقي ينظر إليها بلهفة وحُب ، وتذكر الليل وما اكتنفه من لحظات حميمة وندية على روحهما ، وبخفة وهدوء حاول الخروج من بين حضنها وتدبير الأمر المطلوب من قبل أُمه...فجرح إحدى ساقيه وانفجر منها الدم ووضع عليها قطعة من القماش الأبيض...ثم سدَّ مكان الجرح بلزقة طبية وبعد ذلك نظر من ثقب الباب فرأى أُمه في المطبخ تُجهِز الفطور...رجع لحضن زوجته فوجد حرارة جسمها تنتقل إليه بعد أن حضنها ، وبادلته نفس الشيء وبشرتهما تحتك دون حاجز أو لباس يسترهما...

فبقيا على حالهما لفترة طويلة وهما يحسان بالنشوة والاطمئنان، وكسر شهزاد حاجز الصمت وبادر بقوله:

ـ كم أنا مرتاح معك ... يا حبيبتي...

+ وأنا أيضا " يراودني إحساس لم يغمرني أبدا ...أُحب أن نبقى هكذا ولا نتحرك كي لا نفقد الدفء والحرارة ...

ابتسم شهزاد وقال:

ـ وإذا ما فتحت أُمي الباب ووجدتنا بهذا الشكل...!؟

بدهشة واستغراب سألته:

ـ وهل رجعت ...؟!!

+نعم ، نظرت من ثُقب الباب فوجدتها تجهز الفطور لنا...

نهضت مُسرعة من بين أحضان حبيبها فاتجهت نحو ملابسها فلبستها بسرعة وقالت:

ـ لماذا لم تقل لي...كم أنا خجلة ...وماذا نفعل الآن ؟!

طمأنها بقوله:

ـ لا تقلقي انتهيت من تجهيز المطلوب ...أقدمه لها على طبق من ذهب...

ابتسمت الفتاة وشعرت بخزي وعار ، وراودها صمت قاتل وهي تُكابد ألم الشعور بالفضيحة ولكن شهزاد أدرك الموقف بقوله:

ـ إِنَّهُ مجتمع متخلف...أنا تزوجت وأتحمل تبعات زواجي، وهم يسألون عن شئ لا يخصهم... لا عليك يا حبيبتي ثقي بنفسك...

ابتسمت ابتسامة باردة ، وأحست بالفضيحة ولم ترد على زوجها، واقترب منها وقال:

ـ لماذا أرى هذا الوجه الجميل حزيناً...أرجوك كوني مطمئنةً فأنا ذو نظرة واسعة...فكل إنسان يقع في الخطأ وتمر عليه تجارب ومواقف يأباها ، ولكن بالرغم من ذلك يقع ويخطئ ، ويفرض عليه واقع خارج عن إرادته...المُهم الثقة بالنفس وعدم الوقوع في نفس الخطأ... قد انتهينا منه..

ثم حمل قطعة القماش بعد أن لبس ثيابه وقال:

ـ الآن نتخلص منه...

خرج من الغرفة واستقبلته الأُم بحضنها ، وتعانقا ثم بخجل مرسوم على وجهه قدَّم إليها القماش الملطخ بالدم، ورجع أدراجه دون أن ينبت ببنت شفة...

ووضعت الأُم القماش في كيس ، وبعد أن اطمأنت للأمر جلست على أريكة في الدهليز تنتظر قدوم عروستها لتحتضنها وتبارك زواجها ...ولم تلبث إلا دقائق وقدمت العروسة لتقبيل يد حماتها ، وهي احتضنتها بحفاوة وحب عميق ، وبكيا احتفاءاً بالنشوة الحاصلة من الفرح والمبسط جناحيه على أهل البيت منذ إبرام زواجهما...

وقدَّمت الأُم الفطور إليهما ، ثم غادرت البيت راجعة لبيت أختها، وبقيا مرة أُخرى وحيدان ، وتلاعبا ، ثم استحمَّا ، وفي استحمامهما الأول لذة لم يذوقاها من قبل...

وجدا سعادتهما تحت مظلَّة الحياة الزوجية ، ولذة تكتنف الحُب والاحترام والاطمئنان ، وخطيا نحو المستقبل بخُطى ثابتة " تغمرهما سعادة وأمل لا تساويها كنوز الدنيا...

وظلا مُنذ البداية مُتحابين ومتلائمين ، لا تمر عليهما لحظة إلا وعمَّراها بالحُب والوئام والعِناق والرقود في الحُضن ولو للحظة يسيرة...

إلاَّ أن وجودهما في المدينة بين أيدي الجلاوزة كان خطراً كبيراً عليهما وعلى عائلاتهما ، لذا قرَرَ شهزاد مُغادرة المدينة بِصُحبة زوجته متوجهاً لقرية بعيدة في منطقة قرهداغ الواقعة بالقرب من السليمانية...

وبسرعة غير متوقعة أتمَّ الأمر ، بعد أن دبَّر الأقرباء لهما مسكناً وكيفية ذهابهما وسط الوضع المتوتر والإجراءات الأمنية المشددة...

وفي صباح أحد أيام الشتاء لبست الفتاة ملابسَ كوردية وغادرت مع زوجها المدينة نحو عالم غريب وقدرٍ مجهول وقلبها مطمئن بصحبة حبيبها وما اختارته من العيش معه أينما كان...

12

فتحت عينيها على واقع غير مـألوف وعيـشة مختلفـة عـن مـا مـرت بهـا طِوال حياتها... وخاضت في غمـار تجربـة فريـدة وخطـى نحـو عـالم مُغـاير ومختلف " فمنذ أن تخطيها عتبات المنطقة المعروفة بقرهداغ والتي تحتوي على حـوالي سـت وثمـانين قريـة ، رأت مظـاهر عجيبـة تحمـل معـاني عـدة وأُناس بائـسين يرزخـون تحـت عـبء الحيـاة اليوميـة، ويكـدون لـسد رمـق حيـاتهم وتـأمين لقمـة عـيش لأطفـالهم وعوائلـهم...وفي مظـاهر الطرقـات المُعوجة والبيوتات المبنية من الطين وكل مشهد من المـشاهد الحيـة تهـيج ذاكرتها وتجرح شعورها الرقيق...

فالقروي ومن ينتمي لإحدى القُرى الواقعـة في تلـك المنطقـة يظـل يتعـب طوال السنة وفي نهاية المطاف يخرج خالي اليدين أو يخرج بمحصول لا يملأ منه بطنه ولا يسد أبسط حاجياته...

ويقف الجهل والحرمان من أبسط الحقـوق المدنيـة جنبـا الى جنـب يهـدد مستقبله ومستقبل أولاده ومن يـسكن في تلـك الـدِّيار البعيـدة والنائيـة عـن المدينة...

تركها شهزاد طوال الوقت تفكر وحدها وتدخل في معترك الصراعات الداخلية للدفاع عن الإنسان وإبراز النظرة الإنسانية في أعماقها...

فوا عجباً...!! إن هذه المنطقة خالية تماما من أبسط الخدمات المدنية وما وصلت إليه الحضارة الإنسانية من التقدم والعُمران... وكل قطعة من هذه المنطقة تبدو عليها آثار الهجران والدَّمار...

وتتراكم الأسمدة الحيوانية أمام معظم بيوتات القرى وتبدو القرى لوحات تشكيلية ترجع للعصور الغابرة...ويُرى الناس بملابس وسخة كأنهم خارجون من حريق أو غُبار عاصفة مُهْلِكَة...والملابس عادة تُصلح بالخرق البالية ذو الألوان المختلفة والتي لا يُحسدون عليها... وعادة ما يتجمع القرويون على سطح البيوتات وتحت شمس الشتاء ذات الشعاع الداخلي...وتمر الأيام وركب الحياة في القُرى الكوردية ساكنة دون تغيير و منوال آخر...!!

ولايُرى أية معالم من الحضارة في الآفاق اللهم إلا من هجر القرية واتجه نحو السليمانية أو مدينة عامرة بالعلم والثقافة...

ورغم جمال المناظر الطبيعية وسِحرها المؤثر على النفوس وجاذبيتها إلا أن الإهمال والتقصير يلوحان في الآفاق للغريب القادم ولمن نشأ في أحضان المدن والمناطق العامرة...

ظلَّت طيلة رحلتها تنظر للقرى التي تمر بها ، وتفكر في حال أهلها، ويجرح قلبها لما تحس به، وبنظرتها الواسعة تقف مع القرويين البائسين " المحرومين من الحياة المدنية والحضارية...

ولا تستطيع أن تتفوه بإحساسها لزوجها لوجودهما في سيارة مزدحمة بالرُكاب الحاملين للهموم المتفرقة والخائفين من أجندة النظام وجحوشه المنتشرين في كل بقعة من تلك المنطقة...

احتملت الأنفاس المختنقة ومعاناة الطُرق الوعرة الى أن وصلت للقرية المقصودة...واستقبلها أقارب زوجها بحفاوة بالغة وأسكنوهما في بيتٍ صغيرٍ قريبٍ من منبع ماء القرية...

كانت لليلة الأولى من حياتها صعوبة وسط هذه القرية النائية تجعلها تكتئب وتشعر بحزن دفين ...وتمر على قلبها ذكريات الأهل ولحظاتها في مدينة السلام ونشأتها بين أحضان الثقافة المتعددة والمسارات الفكرية والأدبية التي لا تُعد ولا تحصى... الاَّ أنها لم تستسلم للهموم الطارئة والشعور الناتج عن خُطاها " فرتبت بيتها بشكل فريد وجذاب ، وحاولت أن تجعل من ذلك البيت المتواضع محل إعجاب الزائرين ، ووجدت سعادتها مع زوجها أروع أمنياتها وتتحمل كل المعاناة والآلام بغية الوصول إليها...وفي الليلة الأولى استقبلا أهالي القرية المارين عليهما للترحاب بقدومهما ، وقدما لهم واجب الضيافة وظلا ساكنين والضيُوف يتحدثون عن الوضع العام في القرية والثوار المنتشرين فيها، كانا غير مطلعين على الوضع بشكل عام، واستمعا للأحاديث المختلفة بتأنٍ وسمعا عن الغارات الجوية والقصف المدفعي للقرية واختفاء أهالي القرية في الغابات الشائكة المسماة بـ(قوبى) أو المرتفعات الجبلية الوعرة... ! !

فمنذ تلك الليلة علمت الفتاة بالخطر المحدق بهما من كل الجوانب، وانهما ليسا بمأمن عن الأحداث الجارية والوقائع الآتية في القريب العاجل

...ولا سيما محاولات قوات النظام اقتحام مواقع الثوار أو مداهمة الحصون المانعة والملاجئ المُحصنة داخل أو خارج القرية... ! !

ورغم ذلك قررت مشاركة أهالي القرية كافة معاناتهم ومساعدتهم في تعليم أولادهم وإرشادهم نحو عالم العلم والمعرفة ، والخروج من الوضع البائس لحال أفضل ...

وبعد إنفرادهما ببعضهما قال شهزاد لزوجته:

ـ تخطينا يوماً ثقيلاً وغريباً... ! !ألا تشاطرينني الرأي في ذلك...؟!

بدت آثار التعب على وجهها وقالت:

ـ بلى...كان يوما شاقاً وصعباً بالذات عليَّ...

+كيف وجدت الوضع ؟

ـــ البؤس والشقاء يسيطران على الجميع...إنها نتيجة متوقعة للسياسات القمعية السائدة في هذا البلد...أرى معاشر البائسين محرومين من أبسط حقوقهم...ورغم ذلك يتحملون الحياة الصعبة ومتطلباتها اليومية...وكل ما آلت إليه الأُمور يرجع لعدم مبالاة النظام بالقرى الكوردية وتركها تصل لحال أسوأ من ذلك... إنني أتوقع أن تَسُوءَ الأُمور أكثر فأكثر ، وان تتكلل محاولات النظام بالنجاح للسيطرة على المناطق وإخضاعها...

+إن ساكني القرى لم يحسوا يوماً بالراحة ، وإنهم تحملوا ظُلم الحكومات المتعاقبة على مقاليد الحكم والثوار الخارجين عليهم...فعبء الثورة ونتائجها يقع على عواتقهم المُنهارة والمُنْهَكَة... ! !

ـ ولكن الثوار يحملون شعارات جميلة وجذابة ...

+أكره تشويه تفكيرك " ولكن انظري بنفسك للأحداث وسترين ما لا يسر ولا يخدم القرويين ، فلنترك هذه الأحاديث جانباً، هل القلب مازال مُغرماً بي...؟!

ضحكت وشعرت بحب عميق يسكن قلبها وقالت:

ـ إن حُبي لك دائماً يتجدد ، وان حياتي معك لها طعم خاص ومذاق يجعلني أحتمل الصعوبات الجِسار والمُهْلِكات العِظَام...فلا أستحي منك يا سيد القلب من أن أقول لك أُحبك أكثر من ذي قبل...أُحبك...

عانقها بحرارة ولم يرد عليها إلا بعد ملامسة جسدها ، وبعد القبلات الحارة قال لها:

ـ يا سيدتي ...إنني إختبرت حبي فوجدته أعمق بكثير من تفكير الفلاسفة والعمالقة ومن طول التأريخ على صفحات الكُتب البالية والقديمة...وحبي ضاربٌ في شعاب الزمان وانك لا تفارقين ذهني وقلبي وكل محل إحساس مني حتى بعد فراقي لهذه الدنيا...

ابتعدت هُنيهة وقالت:

ـ مهلاً...مهلاً...يا سيدي تخطيت حدودك...لا أسمح لك بالتفوق عليَّ، بل حبي يتكون من مياه المُحيطات والأبحُر ، ومن نسيم الصباح وأريج الأزهار ونور السماء وشُعاع الحياة...

إبتسم من قولها وقال:

ـ غُلِبت...وانتصرتِ عليَّ...لست جديراً بهذا الحب...وتلك المعاني العظيمة...

تعانقا من شدة فرحهما ببعض وحل محل التعبير والكلام مُلامسة الجسد والتقرب لأبعد مدى ورفع القيود ، والتمتع بكل لحظة تمر عليهما وما أنعم الله عليهما من النِعَم...

وظلا معاً لوجه الصُبح إلى أن غلبهما النوم في أحضان بعضهما وهُما بذلك قضيا الليلة الأولى من حياتهما في القرية وسط بيت متواضع وغرفة صغيرة لا تتعدى بعض الأمتار ، وبقي الحُب سيد الموقف ومتخطياً للعقبات والعوائق الشائكة...

* * *

إن حياة القرية صعبة وذو مشقات مُتعددة...فقبل بزوغ الفجر يصحو القرويون جميعاً ويبدؤون بالعمل الشاق المتكون من حرث الأرض وقطف العنب ودوس البيدر ورعي الحيوانات والاحتطاب في الغابة و ترميم البناء ، وتتوزع الأعمال المذكورة على الفصول الأربعة فلا يستريح أحد في القرية ولا يذوق طعم الراحة أبداً ، ورغم ذلك فهم يحسبون أنفسهم في الجنة المعهودة وبين أحضانها الدافئة...ولا تُخار عزائمهم من شدة الأعمال اليومية ، ومعنوياتهم مرتفعة دائماً بالمناظر الخلابة من التلال والوديان والمنحدرات الشديدة الانحدار ويقضون أوقات فراغهم في السباحة وصيد الحيوانات المختلفة من السناجيب والأرانب والطيور المختلفة وخاصة القبج ذي الصوت الرنان والجذاب...وتبدو حياة القرية في حركة دائبة ومستمرة

وتموج دائماً بالأحداث الجديدة ولا يُرى أحد جالساً دون عمل أو ممارسة هواية مثل الصيد والسباحة...

وعلى النساء رغم مشاركة أزواجهم الأعمال الشاقة تربية الأولاد وإدارة شؤون بيوتهنَّ...

وأعمال البيت تملأ قِسطاً كبيراً من أوقاتهنَّ، ويبدأنَ يومهنَّ بالنهوض باكراً وحلب الحيوانات وتنظيف زريبة المواشي وإحضار الفطور لأزواجهن وخدمة كل من يرقد تحت ظِل البيت...ثم ما يلبثن كثيراً إلى أن يبدأن بالشروع في أعمال أُخرى ولا يتخلصن منها إلاَّ بعد غروب الشمس وتوديع اليوم دون أن يسترحن أو يهنأن فيه بالراحة ولو قليلاً...!!

لم تكن الفتاة مُعتادة على تلك العيشة ولم تَرَ طيلة حياتها أناساً متعبين بهذا الشكل ، رغم معارضتها لهيكلية العيش في القرية وأعمالها اللامنتهية إلاَّ أنها قررت مشاركة أهل القرية حياتهم بشكل آخر...فبعد أن وطأت قدماها أرض القرية قررت تعليم أولادهم وبناتهم القراءة والكتابة ومساعدة النساء في أخذ قِسطهِنَّ من التعليم...وبمعاملتها الحنونة ومعاشرتها الهادئة لهم جذبت قلوبهم واتخذت من بيتها مدرسةً ومكاناً يأوى إليه الكثيرون والكثيرات وتبوأت مكانتها الخاصة في قلوب الجميع...

ولم يكن لهذه الحركة التعليمية أدنى خطر على الثوار المنتشرين في القرية والمنطقة إلا أن نفوسهم الضيقة ونظرتهم القصيرة دفعت بهم للوقوف بوجه شهزاد وزوجته وتدبير المكائد لهما...

فلم يمر وقت كثير حتى امتلأت قلوبهم تجاههما غيظاً وضاقت بهما ذرعاً...وفي أحد أيام الشتاء وجَّهوا إليهما إنذاراً شديداً يطلب منهما الوقوف عن النشاطات التعليمية وأن الثورة تعارض عملهما في القرية...!!

كان لهذا الإنذار تأثير بالغ على نفسية الفتاة وزوجها ، ومن معهما في هذا الركب التعليمي والثقافي ، فبدؤوا بالمعارضة ووقفت الفتاة بوجه المسؤول قائلة:

ــ إننا نقوم بمساعدة الثورة وبإنارة الطريق للناس وتثقيفهم بُغية مساعدة الثوار ونشر مفاهيم حضارية حول الثورة وقادتها...

ولكن المسؤول كان جاهلاً ولم يكن مبالياً إلا بجمال الفتاة وجاذبيتها ، لهذا لم يكن رده يحمل معنىً ولا تفسيراً منطقياً وقال:

ــ هذا أمر من القيادة ، وإننا كحكام المنطقة مخولون بأخذ كافة التدبيرات الضرورية...

وكعادتها في الحوار ردَّت عليه بصوت هادئ وأسلوب مهذب:

ــ هل التعليم وتثقيف الناس ممنوع في دساتير الثورة ؟!

احتار المسؤول من سؤالها وحاول إبراز نوع خاص من الثقافة ولكنه أخفق ولم يستطع رغم حرصه الشديد على جذب تلك الجميلة وقال بشكل صارم:

ــ انه أمر من القيادة ولا أريد مُناقشته...!!

وتبينت للفتاة جهل قادة الثوار ومدى عبثهم بحياة الآلاف من القرويين البائسين...وان معركتها معهم لن تكون سهلة سلسة...والأيام القادمة تحمل أحداثاً غير سارةٍ ووقائع أليمة على نفسيتها ، ومع ذلك فرحت بعملها

الدؤوب وجهدها المتواصل لبناء المجتمع القروي ، وأخذ يدهم نحو نور التعليم والخروج من الكهوف المُعتمة الماثلة في جهلهم بالحياة وأبسط ما يتمناه الإنسان في الحياة...

13

لم تخر عزيمة الفتاة أمام الضغوطات التي وقعت عليها جراء ممارستها التدريس وتعليم الأولاد والنساء في بيتها...بل كانت إرادتها أقوى بكثير من السابق وحلَّت على القرية كأعظم شخصية وامرأة من العيار الثقيل...ويُشار إليها بإعجاب واحترام لا مثيل له لأية امرأة أُخرى عبر التاريخ الطويل للقرية...كانت كملاك هبطت من السماء وتحت أجنحتها المُمتدة والعريضة تحمل النور والشعاع الذي لا يعرف حدوداً ولا مدى معلوماً...وتكبر في نظر زوجها يوما بعد يوم ولحظة بلحظة ، وتُصبح ملكة الحُسن والجمال تملك مقاليد السيادة على القرويين، وتتبوأ مكانة لم تصل إليها مثيلاتها ولا أشهر قادة الثوار في المنطقة...

هاجت الغيرة والحسد في الصدور الضيقة ، وسيطر على قادة الثورة الشعور بالغُبن والفشل ، ودبروا مكيدة مُلفقة ضد الفتاة وزوجها...وتمثل في اتهامها بالتجسس لصالح النظام وخاصة رجال الأمن ، ولم يصدق أحد تلك التهمة ونفوها جهاراً وسراً " إلا أن قمع الثوار لأهالي القرى وممارستهم الخاطئة والشنيعة للحكم أدت إلى كبت جناح التعليم وإنهاء رسالة الفتاة ودورها في القرية وانزواءها في بيتها...

تأثر شهزاد وكل من كان له أدنى صلة بالفتاة بهذا الحدث ، وجُرِحت مشاعر الجميع وتبينت تماماً ممارسات الثوار القمعية ونهجهم الباطل والزائف ، وكانوا عالة على القرويين دوماً ومصدر شؤم وخراب لمنطقة ممتدة كقرهداغ بأسرها والتي كانت قلعة حصينة للثورة وقادتها ...

وكان لهذا الحدث تأثير بالغ على الفتاة " فاكتملت عندها صورة الأحزاب جمعاء بما فيهم الثوريون...انهم حُثالة من الناس تجمعوا لنيل قِسط من المنافع المادية أو مكانة تعود عليهم بالفائدة والغنائم...وفي سبيل ذلك دفعوا بآلاف الأبرياء كأكباش الفِداء وضحايا مُخططاتهم الشريرة... وما الثورة إلا نتيجة محتومة لمنافع الكِبار وسبيل لرد الاعتبار لمن فقده من القادة المُنهزمين والكارزميين أو الذين حلموا بالقيادة وبمناصب تمكنهم من استعباد رقاب الناس وإذلالهم أمام عتبات أحزابهم وجماعاتهم الهَشة والغوغائية...

كم من الأبرياء خُدِعوا باسم الثورة ؟!" أو بشعارات براقة فارغة من الصحة والصدق والأمانة...؟!إن مُسلسل الشعارات لا ينتهي أبداً، وأسواق الأحزاب تظل قائمة مادام الجهل يسيطر على الناس وتسودهم روح الانهزام والشعور بالنقص والحقد والكراهية...!

وليست في جُعبة الأحزاب سوى شعارات ومفاهيم عدائية لبني البشر والقوميات الأُخرى لاستمرارهم في الخِداع واكمال حلقاته بأرواح أبناء المجتمع ، ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه لأبعد مدىً ، ويموت الآلاف في سبيل مخططات الحزب وقادته المنعدمين للأخلاق الفاضلة والأمانة المرجوة...

اغتمت الفتاة للممارسات الدكتاتورية للثوار وحاولت مواجهة الأمر بنفسها ، وشمَّرت عن ساعديها النظيفتين وصدقها المعروف من قبل الجميع وصاحت في حشد من الناس:

ـــ أيها الناس... !يا من كنتم دوماً مهد الثورة ضد الدكتاتورية والطغيان ... !يا من دفعتم ضريبة الثورة من أرواحكم الزكية ودماء فلذات أكبادكم... !ويا من سلمتم مقاليد أموركم لأُناس جهلة بُغية اكتساب الانتصار على العدو المارق وأجندته المنتشرين في كل مكان... !هل تظنون بي ذاك الظن الفاسد الذي لفّقه وصاغه ضُعاف النفس والخائبون من القادة المنهزمين... ! ؟ هل تتصورونني عميلة النظام في القرية... ! ؟ بماذا أحلفكم " فَوَ الذي نفسي بيده ، وقسما بأرواح الشهداء وكل شيء مقدس انه بُهتان وإفك عظيم لفقه القادة الفاشلون...أعداء التعليم والثقافة...أعداء الحرية وكوردستان...والله إنني بريئة ...بريئة...

وصل شهزاد اثر انتهاء زوجته من الكلام وسط حشد القرويين وهي في حالة يُرثى لها واختنق صوتها بينهم وأُغشي عليها فاقدة الوعي والحركة...

أُصيب شهزاد بالذهول من مشاهدة زوجته بهذه الحالة الخطيرة ، ورفعها بسرعة فائقة ثم وصلها بمساعدة القرويين لبيته ، فوجدها شبه منهارة وتردد من بين شفتيها : بريئة...بريئة...

سرى النبأ في القرية سريان النَّار في الهشيم ، وتجمع مُعظم القرويين أمام بيت شهزاد حاملين أسلحتهم ومدياتهم بأيديهم ينتظرون إشارة منه لأخذ ثأر زوجته من الثوار ومقرهم في القرية...

وانتشر كلام الفتاة على ألسن الناس وأصبحت ضحية المؤامرة والخداع الحزبي ورجاله العالة على القرويين...وتحركت غيرتهم وعطفهم الزائد للفتاة البريئة والغريبة وأصبحوا في خندق واحد ضد الثوار ، وباتوا يخططون لإحراق مقرهم والاستيلاء عليه...ذاع الخبر في المنطقة وتحرك وجهائها لحل المعضلة الكُبرى قبل فوات الأوان، وإطفاء نارٍ قد لا تُخمد بسهولة وتتعدى آثارها لأجيال متعاقبة...

دعا النساء والرجال لإفاقة الفتاة من غيبوبتها واسترداد صحتها المُنهارة ، وتضرعوا عند ضريح الولي الصالح والمعروف في القرية ، وأصبح للقرية قضية حية تدافع عنها حتى آخر رمق من المواجهة...

وشدَّدوا حراستهم حول بيتها وتخلوا عن مشاغلهم وأعمالهم اللامُنتهية...

كان الثوار وقادتهم في مأزق من أمرهم ، وأصبحوا على مهب الريح والسقوط ونهاية وجودهم في قُرى المنطقة ، وفقدانهم لمراكزهم الحساسة والآمنة...ستكون كارثة كبيرة على الحزب وقادته ، وسيُجرُّ الكُل لهاوية السقوط وحرمانهم من سيادة المنطقة، ويمكن أن يؤدي الأمر إلى نوع من العصيان العام في صفوف القرويين وإحراق كافة مقراتهم وإخراجهم من قراهم عنوةً...

وإظهار العِداء والغيظ لكافة أشكال المقاومة الثورية ، وإنهاء أمرهم قبل إتمامه ، يا له من حدث خطير قد يؤدي الى دفن الحزب للأبد وتشتيت عُرى القادة وزجهم في مقبرة النسيان...يجب أن يُعاقب المسؤولون عن الحادث ويجردوا من مناصبهم وإذلالهم أمام الناس حتى لا يفقد الحزب مصداقيته

وشعبيته..مهما كان لأمر الفتاة من تـأثير فـلا يـصل إلى هـذا الحـد المُنهـار والمُتأجِج الذي وصل إليه...الحالة خطيرة جداً ولا تلبث كثيراً إذا ما تأجَّجَ الأمر واشتعل... ! !

التقى القرويون الثائرون بوفـود الثـوار واتفقـوا علـى حـل الأمـر بـشكل سلمي ، ومعاقبـة المـسؤول الرئيـسي والمعـاونون لـه عـن الحـادث ، وذلـك بتجريدهم من مناصبهم وطردهم من صفوف الحزب... !

ولم يكن المسؤول ليفعل ذلك من تلقاء نفسه لولا إيعـاز الحـزب وقادتـه إلا أن الإناء قد كسر على رأسهم ، وهدأت العاصـفة قبـل أن تهـب، ووقفـت موجة الاعتراضات والمناداة بحرق مقر الثوار عند هذا الحد...

وبقي شهزاد مع حشد من الناس واقفـين متـضرعين وداعـين البـاري أن تعود الصحة والعافية لزوجته وتخرج من الحالة الحرجة...

مضى يومـان علـى الحـادث ورويـداً رويـداً تحـسنت صـحة الفتـاة شـيئاً فشيئاً ونالت قِسطاً من الراحة والهـدوء ، وعلمـت بحـال المـسؤولين ووقفـة القرية معها في خندق واحد...وانفجرت باكية من شدة فرحهـا بالنـصر علـى أعداء التعليم والثقافة...وشكَّرت القـرويين علـى مـوقفهم وحاولـت تجـسيد شعورها في الكلمات التالية: "أشكركم يا من أحببتكم منذ أن فتحـت عـيني بينكم...لقد انتصر التعليم على الأُمية ، والعلم على الجهـل ، وأنـوار القلـم على غيوم الجهـل وأسـراب الـوهم...أنـا الآن سـعيدة وفَرِحَـة بنـصر العلـم ورفرفة جناحيه في السماء عالياً...ستكون هذه بداية لنهاية الأُمية والجهـل الملقاة علـى عـاتقكم وستتحـسن الأُمـور وشـؤونكم اذا مـا جَـرَت علـى هـذا المنوال...وتتكسر عُقدة الخداع وبنودَهُ المُتسلسلة للأبد...

لا تتصورون مدى فرحتي بخُطاكم ، تأكدوا من عدم سيطرة أية قوى عليكم بهذا التقارب والسداد والوحدة...بوركتم ودمتم منتصرين".

ثم نظرت في السماء وحلقت عالياً مع النجوم المتلألئة وأشعتها البراقة وقالت بصوت خافض:

ـ يا عظيم السماء...غُفرانك على كل ذنب اقترفته...أنت صاحب الفضل والمِنة عليَّ دائماً...استغفرك على الهفوات والمعاصي وكل فعل قبيح...

ومسحت زفراتها بيديها وجلست على كرسي خشبي ، ثم نظرت حواليها واستقرت عيناها على شهزاد وقالت من صميم قلبها:

ـ حبي...لقد سببت لك الألم والمتاعب...آسفة على ذلك...أتمنى أن تصفح عني...

واقترب شهزاد منها وقال بصوت يتخلله انقطاع من شدة تأثره بالأحداث:

ـ اعتز بكِ...انكِ حقاً امرأة عظيمة...عظيمة التفكير والخُطى...هل تسمحين لي بالخدمة أو القُرب منك...! ؟

ابتسمت ابتسامة عابرة وقالت:

ـ أنت السيد والوالي والصاحب وكلي مُلكُك...!

بقيا ساكتين للحظات قصيرة ثم اقتربا من بعض وأصبح الصمت وليداً بينهما وحالة النظرات والقبلات أعمق وأبلغ من ألف كلمة وتعبير ، وشعرا بالراحة والطمأنينة ونوع من لذة خفية سببها الانتصار ووقوف القرية بأسرها صفاً واحداً معهما...

14

خلال زيارة غير متوقعة زارت أُم الفتاة ابنتها في القرية...وتعجبت من عيشتها وسط وضع متخلف وبعيد عن أبسط الخدمات العمرانية والإنسانية...راعت مشاعر شهزاد ولم تبح بشيء سوى إيماءات بعيدة من هُنا وهناك...وبقيت في القرية لمدة إسبوع، ولكن الشيء المُحير لها كيف لأبنتها التآلف مع عيشة كهذه ، ومع أُناس غرباء وكأنها ولدت بينهم وترعرعت معهم... كيف تُطيق عيشة كهذه وتصبر على زمهرير الشتاء وحياة تربك وتتعب باستمرار ؟!نهارها صراع مع الحياة وليلها مقبرة عميقة يسودها سكون مُخيف...؟!

ومن يَكفل سلامتها والقوات النظامية واقفة بالمرصاد لمن يسكن مع الثوار في هذه المنطقة...إنها تقوم بمجازفة جنونية وحياتها بهذه الصورة خطأ ذريع وارتباط فاشل...وكيف لها فتح باب هذه المواضيع على مصراعيها وهي مُقتنعة تماماً بكل خطوة خطتها منذ أن تزوجت وانتقلت لهذه القرية النائية...؟!وإذا ما سألها أقاربها عن وضع ابنتها كيف لها أن تجيب ؟! ولكن لماذا تشغل تفكيرها بأشياء لا تتعلق بها " هي راضية ومُقتنعة واختارت بنفسها دون ضغط من أحد أو إجبار على فعلة ما...

ملأت هذه الأفكار ذاكرة الأُم عندما سألتها الفتاة:

ـ أُمي...لماذا أراك مُحتارة وشاردة الذهن ؟!

حاولت إبراز تصرفاتها بشكل طبيعي وأجابت بعد بُرهة من الوقت:

ـ لا شيء سوى ذهولي باختيارك لهذا المكان العجيب...!!

+نعم...أُمّاه إن الحياة هُنا تفرق عن المدينة وبالذات عن بغداد ولكن الظروف أجبرتنا على الاختيار...

ـ وأي ظروف تجبر المرء على اختيار كهذا ؟

+اعتقال شهزاد وقتله في أحد سجون النظام المجرم...هل أرضى بذلك أم أُحافظ على حياة زوجي ؟ في البداية كان الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة لي وبمرور الأيام تعودنا العيش هنا ووجدنا لأنفسنا مهنة شريفة وفراغ قلما يُسد بشخص آخر...

ـ وهل أنتما بمنأى عن الخطر المحدق...إن جحافل النظام ومئات الجنود من القوات المساندة تقف على عتبات المنطقة لاقتحامها أو إبادتها في أية لحظة تصدر الأوامر لها...يا ابنتي أرجوك لا تخاطرا بحياتكما...إنني تألمت بما فيه الكفاية...حاولا إيجاد مخرج من هذا المأزق...لا أحتمل فاجعة أُخرى...فمنذ فقداني لوالدك وأنا أتألم وأصبر على الأحاسيس الأليمة والمواقف التي تخرجني من إنسانيتي...أرجوك اسمعيني... لماذا لا تتركان هذه المنطقة وتتجهان نحو بلد آخر، مثل إيران...؟!

+أُمي أرجوك لا تتشاءمي كوني متفائلةً...لا أحد يتوقع اقتحام النظام للمنطقة ، والقصف الواقع ظاهرة عامة حتى بغداد تتعرض للقصف الإيراني

ولا أحد ينجو من قدر الله، وبالنسبة لترك البلد ليس الأمر بهذه البساطة...ويمكن في مرحلة ما من حياتنا أن نفكر في ترك البلد نهائياً...والآن دعك من المخاوف وهذه الأحاديث ، قولي لي ما أخبار البنات وأحمد ولماذا لم تأتيا معك؟

ضجرت بتغيير الحديث ولكنها ردت بقولها:

ـ انهما مُنهمكتان في الدراسة ولا تستطيعان طلب الإجازة في هذا الوقت ، وأحمد أيضاً مشغول بالدراسة مثل شقيقاته...ولأن الطريق غير مُيسر لم أصطحب أحداً معي...الطريق تكتنفها المخاطر...

+أرجو أن تتحسن الأُمور ونلتقي في وضع أحسن...وبالمناسبة فقد اتفقنا اليوم مع شهزاد ان نقوم بنزهة في (قوبى)...المناظر الطبيعية جميلة للغاية ، لا أريد التحدث عنها فسترين ذلك بنفسك...

ـ لا أريد إتعابكما...

+أي تعب ؟! إننا ما صدقنا هذه الزيارة...كل ليلة أحلم بكم وأتحدث معكم لوجه الصبح...

ـ آه...لا تذكريني...فأنا أحترق شوقاً إليك...ودائما ذكراك على ألسنتنا، صورتك لا تفارق مخيلتنا...آه من البُعد وجراحاته...!!

+أرجوك أُمي إنني أتألم من سماعي لهذه الكلمات...أرجوك لا تتحدثي عن هذه المسائل...

ـ ماذا عساي أن أفعل...حسنا أُقدر مشاعرك ...

أثناء هذا الحوار دخلت أم شهزاد عليهما وبعد استئذانها قالت:

ـ حَنان بيتكما مُرتب كبيوت المدينة تماماً...أنا معجبة بك...

+شكرا أُمي...هذا من ظرافة حسك...

تدخلت أُمها وقالت:

ـ هي صاحبة ذوق رفيع في ترتيب البيت...افتقدنا الاناقة وترتيب البيت منذ أن تزوجت...

بابتسامة عابرة قالت أُم شهزاد:

ـ هكذا البنات عندما يكبرن يتركننا ويجهدن أنفسهن لبيوتهنَّ...!

ردَّت بجرأة وعدم استحياء:

ـ سُنة الحياة...لولا ذلك لما كان للحياة طعم ومذاق...

ابتسمت المرأتان، ونظرتا لبعضهما وفي قلبيهما تعليق وكلام آخر على الموضوع إلا انهما اكتفتا بذلك القدر وفتحت أم شهزاد موضوعاً آخر وسألت الفتاة عنها مباشرة:

ـــ تأخرتما في الإنجاب...فلنفرح بالصغير قبل موتنا...لماذا تكاسلتما...

احمرت وجنتا الفتاة ولم تدر كيف تجيب حماتها ولكن أُمها تجاوزتها عن الموقف بقولها:

ـ هي حامل منذ شهرين...ادعي لها أن تقوم بسلامة...

فرحت حماتها بالخبر وزغردت من شدة الفرح وقالت:

ـ إن شاء الله نفرح بالمولود وتقومين بالسلامة...

+إن شاء الله...

وفي هذا اليوم اصطحبهما شهزاد لـ(قوبي) الوادي الجبلي السحيق والذي يمتد بين جبلين شاهقين ، ورأوا الغابة الكثيفة والكتل الصخرية والينابيع

العذبة ، بالإضافة إلى استماعهما لأصوات الطيور المختلفة ورؤيتهما للحيوانات والمشاهد الطبيعية الخلابة فرأتا مملكة عظيمة خلف القرية تكتنف جمالاً ومناظر ساحرة تجعلهما تسرحان في عالم طبيعي ساحر ، وتفرغت همومهما مع خرير المياه ونسيم الرياح المُحركة لأغصان الأشجار المتعددة وأصوات الطيور والحيوانات المُختفية في الغابة الشاسعة تروح وتجيء على مسامعهما...

سرحتا مع الطبيعة لساعات قلائل ، وفرَّغتا همومهما أو تناستاها لبعض الوقت...ثم رجعتا برفقة شهزاد وزوجته للبيت ، وسكن الجميع مع هدوء الليل وأجنحته الممتدة...

وفي الصباح الباكر ودَّعت الأُم ابنتها وداعاً حاراً وحزيناً ، وكان البُكاء مسيطراً على الجميع ، وتسيل الدموع على الخدود وتجهش النساء القريبات احساسهن في صدورهن ، وكانت الفتاة تتألم وتشعر بفراق أمها وتسأل مئات الأسئلة حول اللقاء الآتي، وهل ترى عائلتها مرة أُخرى...؟وشمَّت رائحة أُمها كطفلة وبقيتا معاً واقفتين مُتعانقتين دون كلام أو همس ، وحسبت حضنها مهدا دفيئاً ومكاناً آمناً تحس فيها بالهدوء والراحة والطمأنينة من هموم الدنيا ومتاعبها...

مرت اللحظات خاطفة، وركبت الأُم السيارة وابتعدت رويداً رويداً، وبقيت الفتاة في مكانها لاتتحرك ونظرها يتبع عجلات السيارة ، وهي تبتعد عن القرية وتحمل أعز انسانة على قلبها..."وداعاً يا أمي الغالية ...وداعاً يا نشوتي وفرحتي ...آه... من ذلك الإحساس القاتل...آه من جُرح الفراق وويلاته الأليمة...كيف لي رثاء ذكراك ومناقبك الجليلة ؟إن التعبير عاجز

عن ذلك ، والكلمات لا تفي بالغرض المنشود...أنا عاجزة عن ذلك وليس لي بُدٌ سوى الحُزن وكبت جناحه المدمر...يا ليتني لم ألد وكنت نسياً منسياً...كيف لي مداواة الجراحات العميقة والتي تحمل في طياتها الشعور بالبؤس والشقاء والفناء...! ؟أين أنا من هذا الكون وما جدوى بقائي ؟! فقدتك يا أُمي الغالية منذ أن وطأت قدماي ديار الغُربة...رغم ذلك قلبي دائماً يرفرف في سماء مدينة السلام وحول البيت الصغير الذي ترعرت فيه... لست أدري لماذا أحس بذاك الإحساس والفرحة باتت غريبة وبعيدة عني ...؟!إن ذكراي معكم تتجدَّد ، صورتكم لاتبتعد عن مخيلتي ، أشتاق لنسماتكم وكدت احترق من شدة شوقي ...".

وضع شهزاد يديه على كتفي زوجته وقطع سلسلة تفكيرها وقال بصوت منخفض:

ـ بماذا تفكرين ؟! أُقدر شعورك أرجوك لا تكوني حزينة ...

+ثَمَّة حُزن عميق يرتابني...!أحن لبيتي في بغداد وكل من له أدنى صلة بي...

ـ وأين نحن؟

تذكرت حُبها لزوجها ومالبثت أن عانقته بشدة وقالت:

ـ انت مصدر نشوتي وحُبي للأبد...لولاك لما تمنيت العيش والبقاء أصلاً ...

اقتربت شفتاه من شفتيها، وذاق طَعم فمها وبعد قُبلات هادئة قال:

ـ يا ملكة الحُسن والجمال لا أحب رؤيتك والحُزن مُسيطر عليك ، أرجوك كوني متفائلةً بغدٍ أفضل...سنلتقي جميعاً في القريب العاجل...

+أمتأكد من ذلك ؟

ـ نعم ...كوني واثقة...تفاءلي بالخير تجديه...

+ أنا دائماً متفائل بغد أفـضل ، ورغـم شـدة الأمـر وضـبابية الأيـام إلا أنني أنتظر الغد بفارغ الصبر...

ـ كوني واثقة...

+اطمئن...

ووضعت رأسها على صدر زوجها وسرحت بعينيها وتفكيرها بغدٍ أفـضل وتمنت مستقبلاً زاهراً وأياماً تخلو من الآلام والمعاناة والمأساة...

15

خرجت القرية عن بكرة أبيها إثر تعرضها للقصف المدفعي ، والذي استهدف مواقع الثوار المتمركزين داخل وخارج القرية...

واعتاد شهزاد وزوجته على الأمر بعد أن تجرعا نفس المرارة والمأساة اليومية لأهل القرية...وقضوا جميعاً ساعاتٍ طِوالٍ في (قوبي) والأمكنة الآمنة بُغية تهدئة الوضع وانتهاء القصف...

وكانت المدافع تُدك القرية وتنزل القنابل بشكل عشوائي على رؤوس الأبرياء وبيوتهم ومحاصيلهم ومزارعهم دون تمييز ، وأصبحت القرية خالية من السُكان وهي كالديار المهجورة والفاقدة لساكنيها...

شَكَّل الوضع المتوتر حالة من اليأس والشعور بالإحباط من الحياة لدى الفتاة وزوجها ، ففي تلك الأيام العصيبة قضوا معا اللحظات المُرَّة بلياليها ونهارها ببردها وحَرِّها ، وفقدت الحياة طعمها وبريقها ، وبات العيش نوعاً من الخبط في بيداء قاحلة وحدثاً خالياً من المعنى أو حركة تغييرية تلبس الحياة ثوباً جديداً...وكانت قوات النظام عازمة على إنهاء الوجود الكوردي

بشتى أنواعه في القرى...والقضاء على التمرد المُتمثل بقوات الثوار المنتشرين في المنطقة بأسرها...

وفي بداية الأمر لم يقف الثوار مكتوفي الأيدي بل قاوموا هجمات قوات النظام بكافة أنواع المقاومة ، وكانت الشجاعة والبسالة سِجالاً يكتب من معركة لأُخرى " ولكن شتان ما بين القوتين من حيث العَدَد والعُدَّة " لذا استنجد الثوار بإيران كعادتهم ، وانتقلت وحدات خاصة من الحرس الثوري للمنطقة مما أدى الى تأجُج الوضع وتفاقمه بنوع مُلفت للنظر ، ولم تكن التدخلات تفيد القرويين ولا سكان كوردستان ، بل كان المستفيد الوحيد من الوضع إيران وجندها المنتشرون في بقاعاتٍ واسعةٍ من قره‌داغ ...وبسبب وجودهم فقد تفاقم الوضع، وحلَّ الظلام على القرى وبدأ النظام القمعي بتنفيذ مُخططه البشع من تهجير القُرى وإرغامهم على العيش بمجمعات سكنية خالية من الخدمات الإنسانية...

ساء الوضع يوماً بعد يوم ولم تعد الحياة بالنسبة لساكني كوردستان تعني شيئاً أو تحمل معنىً ما ، فآلاف القرويين هُجِروا قسراً من مواطن آبائهم وحُرموا من تعديها مرة أُخرى ، وباتت تلك المناطق تُسمى بالمناطق المُحرمة...وشكَّلَت هذه الخُطوة جريمة شنعاء في الدساتير الإنسانية ترتكب ضد الأكراد ومحاولة عُنصرية لتجثيث عُرى المُجتمع الكوردي وتفريق شمله، وأوعز الطاغية لعشرات الفيالق والمفارز الخاصة أمراً صارماً بعدم التهاون مع القرويين ومن يُلقى القبض عليه في هذه المناطق ، وأُنشأت معسكرات الموت والتي سميت بمعسكرات الأنفال...وبدأت عمليات الإبادة الجماعية في هذه المناطق إثر تعرض كركوك للقصف من قبل الثوار

بمساعدة إيران...وهاج الوحش الشرس وأخذ ذريعته التي طالما بحث عنها ،وأصدر أوامره الصارمة بحق الأبرياء والمدنيين العُزَّل ، فأول مدارج الخطة تمثلت في قصف المنطقة دون هوادة ، وبكافة الأسلحة ولاسيما الكيماوية ، ثم تحركت الفيالق والمفارز والجحوش التابعة للنظام من كل حدب وصوب ، وبدؤوا بعمليات البحث عن الأحياء وزجهم في معسكرات الموت ، ومن ثَمَّ تفريق شمل العوائل وإرسال كل على حِدة لقسم من هذه المعسكرات الفاشية...

خارت قوى المقاومة أمام الهجمات الشرسة والمحملة جواً وبراً ، وانسحب الثوار أدراجاً فاريّن نحو إيران ، وتركوا القرويين البائسين يواجهون مصيرهم المحتوم بالقتل والموت الشنيع ...

تألمت الفتاة من مئات المشاهد المأساوية للقرويين وهم محصورون بين (قوبى) وقُراهم...وأبت مفارقتهم والابتعاد عنهم حتى مع إتاحة الفرصة للمغادرة...كانت النظرة الإنسانية تسيطر عليها...مع وضعها كحامل وتحمل آلام ومخاض الحمل خدمتهم وشاركتهم المعاناة، وهدّأت الأطفال وساعدت العجائز وعاشرت معاناتهم في تلك الأيام العصيبة...

حُصِرَت القرية ذات مرة بالقُرب من هيكل نارامسيس ونظرت الفتاة إلى الحضارة العريقة للمنطقة...فرأت بوادر الحُكم من خلال الهيكل المنحوت على الجبل يرمز لعهدٍ غابرٍ، وحُكم ضارب في أعماق التأريخ البعيد...ولمشهد الخاضعين في المنحوت تأثير عليها ، وفكَّرَت بألف قصة وحدث أثناء رؤيتها له...

"لاشك أن الحضارة القديمة هنا والتي بدأت بفرار نارامسيس وبناء حكمه بعيداً عن بابل نهاية غير سارة...انهم تعرضوا للهلاك والفناء وعدم البقاء أصلاً ، وبقيت من الحضارة مجموعة قُرى فقط وهيكل يرمز لعهدهم ووجودهم منذ ألفي سنة قبل الميلاد أو معركة ما انتصر فيها نارامسيس..."

وقارنت بين الحالتين وتشاءمت من الوضع ولاحت في الآفاق نهاية مأساوية للسكان والمنطقة ،وارتابها حُزن قاتل ورأت حشد القرويين المنهوكين في عِداد الموتى والهالكين...وقالت في نفسها:

"إلى أيٍّ مصيرٍ مجهولٍ نخطو ؟ لا أدري هل المعاناة أعطتنا تلك النظرة أم الشعور المكنون في داخلنا ؟ ليس هناك فرق لأي منهما المهم أننا نشعر بالموت وقربه منا...لماذا لا نرى صفاء السماء وجمال الطبيعة الخلاَّبة ؟ إن القمع والظلم أفقدنا المعاني الجميلة والإحساس المُرهف بالحس والشعور ...!!وما مصير هؤلاء الأبرياء؟! وتلك البراعم الحديثة ؟ هل نموت جمعاء دون خبر أو دراية من أحد...؟وأين نُدفن...؟لا ندفن بل نبقى هكذا إلى أن تُؤكل أجسادنا من قبل وحوش الغابة وجوارح السماء...!!مئات الآلاف تُعاني وتتألم جراء قرار من الطاغية والعالم ينظر بعين حادَّة وحديث بارد لا يحرك ساكناً...أيها الإنسان انك حقاً شقيٌ وبائسٌ من الوجود والحياة معاً...حياتك بؤس وموتك شقاء أبدي وغير منتهي...!!لهذا نكافح من أجل البقاء ؟! وما معنى البقاء إذا كان مصحوباً بالرذائل وصوره المُتعدِدَة...!؟".

وفجأة نظرت لوجوه الناس فشعرت بالحسرة على العُمر الضائع والأوقات الخالية من المشاغل والمأساة التي أنهكتهم وحرمتهم حق التمتع بالحياة...وقالت مُجدداً:

"يا معشر البائسين والمحرومين ان وجوهكم أعطتني تعبيراً عميقاً ومعاني لا تُحصى ، كُلنا نخاف من المجهول وحدث قد يقع في أية لحظة... ولا نعرف مدى شناعة الحدث وهوله المفزع...!؟ حتى الأطفال خائفون ومفزوعون...!والعجائز أيضا يرتسم الخوف على وجوههم...مررتم على هذا المكان مئات المرات وبشكل طبيعي ، وتمتعتم بمناظره الخلابة والساحرة ولكن دويِّ الانفجارات وتفاقم الوضع وهواجس الخوف حلَّت محل الإحساس الجميل، وأوصلتكم لهذه الحالة البائسة...إنني تعلمت من الحياة أن لا أيأس من الوجود وأظل أقاوم لآخر رمق من الحياة ...فأرجو منكم ألا تفزعوا ولا تفقدوا الأمل...إن الموت بهذا الشكل أمر فضيع وثقيل على الأنفس...ابتسموا وتمنوا عيشة رغيدة رغم بُعد الحياة ومحالها..."

واستقرت عيناها على الأطفال وهم خائفون ويبكون واستنجدوا بأمهاتهم وآبائهم المفزوعين...وسمعت صُراخ النساء وبُكاء الأطفال فاهتزَّت مشاعرها من جديد وقالت: "يا روح قلبي ونسيم حياتي " الحياة هنا وفي هذه اللحظة خالية تماماً من أيِّ معنى، إلى من أشكو ضعف قوانا والظلم الواقع علينا... انك عالم بحالنا يا جبار السماوات والأرض ، إننا ضعفاء في الأرض ...".

ثم تذكرت زوجها ونظرت إليه بشكل مُغاير ومختلف عن النظرات السابقة وقالت له بصوت خافض:

ـ يا حبيبي وأمل قلبي ...بماذا تـشعر ونحـن جميعـاً نعـاني مـن الآلام والمأساة ونُصارع الموت الذي يحلق علينا من حين لآخر ؟!

فكَّر قليلاً وقال:

ـ أشعر باليأس والإحباط ، وأنا آسف لزجك معي في هذا المعترك...

ابتسمت من قوله وقالت بجرأة وشجاعة:

ـ لا أبداً...أنا معك أينما كنت ...ومع معاشر البائسين الفاقدين لأدنى حـق في الحيـاة...وأريـدك ألاَّ تيـئس...فاليـأس يولـد الـشقاء والإحبـاط ...لنقاوم الظلم والطغيان ونأخذ بيد البائسين ونرفع معنوياتهم...

+انـك أعظـم ممـا تـصورت...بهـذه الحالـة تقـاومين ؟! يـا سـيدتي " صاحبة الحُضن الحنون أنت الملكة ونحن خدمك وحاشيتك بماذا تأمريننا؟

ـ ليس هذا وقت المُزاح يا سيد شهزاد ...

+ولكن قولي لي بربك لو نجونا من الموت وولد المولود ماذا نسميه؟

ـ أية تسمية تعجبك ..

+أحب تسميته إذا كان ولداً بـ (ژين) وإذا كانت بنتاً بـ (ژيان)..

ـ لماذا ؟

+ لأنك تقاومين الموت رغم قُربه منـا بالحيـاة وهـذان الاسمـان يحمـلان معنى المقاومة والبقاء رغم حملهما لمعنى واحد في الكوردية إلا انهما أعظـم تحد للموت ومعانيه المُفزعة...

ـ بإذن الله ننتصر على الأشرار ونحن لا حول لنا ولا قوة ...

+ بالمناسبة كم بقي بالضبط من مدة الحمل ؟

ـ أقل من خمسة عشر يوماً ...

+ستقومين بسلامة ونحن في وضع آخر ونقوم بدعوة أهل القرية وإقامة العقيقة...

ـ إن شاء الله...

وأثناء ذلك فكَّرت الفتاة بحال "بهره" والتي زارتهم قبل انقطاع الطريق وتعرضها لنفس المعاناة وقالت:

ـ أشفق على بهره...انقطع الطريق ولم تستطع الرجوع للسليمانية...

+مشيئة القدر...بذلت لها ما بوسعي فلم أستطع تأمين طريق لها كي تعود...

ـ صحيح...

+اقتربي منها واعطيها قِسطاً من الأمل المكنون فيك...

ـ إنها قوية بما فيه الكفاية ، ولا تسكت أبداً وتروي باستمرار النكت الظريفة وتضحكنا ...

خلال حديثهما وقع انفجار هائل، وارتبك الناس وفقدوا توازنهم، وتفرقوا واتجه كل صوب مكان مجهول ومرتفع صعب وشائك...وفي غضون دقائق تجمعوا بالقرب من الهيكل وقام أحد وجهاء القرية فيهم خطيباً وقال:

ـ يا سُكان القرية...إن الثوار تركونا وفروا لأحضان أسيادهم ، وإننا الآن وحدنا نواجه الوضع ، وإذا ما حاولنا الاقتراب من القوات فلاشك إننا نُعتقل ولا ندري كيف يعاملوننا...ولا نستطيع العودة للقرية والعيش تحت وابل من القصف الوحشي...

صاح أحد السكان بغضب:

ـ انهم جبناء وخونة...

وقال آخر:

ـ الويل للجبناء...

وقالت إحدى النساء:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ...

ثم قال الوجيه الخطيب من جديد:

ـ ليس هذا وقت العتاب والحساب ، المهم أن نخرج من هذا المأزق بأي شكل من الأشكال...

أعقب وجيه آخر على كلام قرينه بقوله:

ـ المهم أن نجد حلاً لهذه المعضلة ، هل توافقون على الاستسلام ..؟!

وقع صخب واختلاط الأصوات ولم يفهم أحد شيئاً وصاح الخطيب بصوت مرتفع:

ـــــ أرجوكم نريد حلاً ولا نستطيع إيجاد الحل بهذا الشكل ...

أيد الجميع قول الوجيه وساد الصمت الموقف وقال الخطيب حاسما الأمر:

ـ من يؤيد الاستسلام فليرفع يده " الرجال فقط...!

من شدة الوضع وحجم المصيبة عليهم رفع معظمهم يده وتنهد الوجيه خيبة وقال:

ـ فكروا بالأمر لدينا حل آخر وهو المشي قُرابة تسعة عشر ساعة والوصول لمدينة كفري ثم الذهاب خُفية للسليمانية ...

لقي الحل الأخير معارضة الجميع وفي غضون ذلك تساءلت الفتاة:

ـــ سيدي هل الوصول لكفري بسلامة مضمون أم تكتنفه مخاطر وصعوبات ؟

بهدوءٍ تامٍ أجاب الوجيه:

ـ يا أُستاذة مع الأسف كل الطرق مليئة بالمخاطر . . . !

وتشتت أمر القرية بينهم وباتوا حيارى وقد فقدوا المبادرة والقرار الصائب. . .سَكنوا الليالي الصعاب في (قوبي) مختفين بين الأشجار وفي الكهوف والمنحدرات ، واختفت كل عائلة على حدة تمشياً مع رغبة وقرار مُعيلها وولي أمرها. . .

ترك القرويون بيوتهم ومزارعهم وحيواناتهم جانباً وحاولوا الفرار بجلدهم فقط. . . شهدت المنطقة وضعاً مأساوياً . . .ففي النهار تقع الاشتباكات مع بعض عناصر الثوار الرافضة للاستسلام والفرار وقوات النظام المُتعددة الأصناف ، وبالليل كانت القُرى والمنطقة أشبه بساحة الأشباح والمخاطر الجسيمة . .

وشملت المأساة حتى الحيوانات والطيور، فقد تركهم القرويون وهم عاجزون عن تأمين الأكل والسقي" فاتبعت بعض الحيوانات خُطى أصحابها ولكن دون جدوى ، وصاحت الطيور الآلفة من شدة الجوع والعطش وعدم قدرتهم على تأمين قوتهم ومعيشتهم. . .

بكى الناس من شدة هول المصيبة ، فَتَرك ديار الآباء والأجداد أصعب مما يتصوره المرء عند الوهلة الأولى. . .ولم يشهد التأريخ الكوردي فاجعة وداهية أمرُّ من تهجير القُرى وحرمان أهلها من تخطي حدودها مرة أُخرى. . . وما لهذه الخطوة تأثير بعيد على البُنية الاجتماعية للمجتمع

الكـوردي ومُـستقبله...فهـذه العمليـة كانـت بمثابـة قتـل الـذات الكورديـة ودفنها للأبد...!! ولم يعد البُكاء ولا العويل يفي بشيء، وتقدمت جحافـل القوات الغازية صوب القُرى وهدموا المساجد قبل الأبنية وبيوت المواطنين.

وتقدمتهم جحوش المفارز الخاصة ومن تعاون معهم لهدم البيت الكوردي واعتقـال الـسُكان المـدنيين وتـصفيتهم في معـسكرات الإبـادة الجماعيـة... وأخذت الجحوش والقوات ممتلكات القرويين من الحيوانات وكل شئ مـتروك داخل القُرى المهجورة...

وشـهدت القـرى أيامـاً سـوداء في تأريخهـا ومأسـاة أليمـة تحمـل معـاني اليأس والشقاء والفناء والموت دون ذنب أو جريمة...!!

وفقد الناس توازنهم وعقلـهم جـراء الحـادث وانتـشروا فـزعين مـن هـول المصيبة ووقعوا في الكمائن المنصوبة على جنبات الطرق وفي عُقر دارهم...

وتفرق شمل العوائل بمجرد إلقاء القبض عليهم...وأخـذوا الرجـال علـى مرأى ومسمع من النساء والأطفال وذهبوا بهم بعيـداً، وكـان للنـساء مكـان آخر وطريق مختلف...

لم يتصور أحد السيناريو المُعد مـن قبـل النظـام الفاشـي...والجريمـة التي بدأ بالتحضير لها منذ أمد بعيد...ولم يكن أحد يُفكر بتصفيته داخـل المعسكرات واغتـصاب امرأتـه أو بناتـه وأخواتـه ونـساء قريتـه في القريـب العاجـل...فكـروا بـالأمر كحـدثٍ عـاديٍ وجريمـة يُغرمـون عليهـا ثـم يُطلـق سـراحهم أو يجمعهـم النظـام في إحـدى المُجمعـات الـسكنية بـالقُرب مـن السليمانية...وأقل ما في الأمر أنهم يَنجون برأسهم وحياتهم وأرواح عوائلهم وأقربائهم...

ولكـن شـتان مـا بـين الـتفكيرين " الـتفكير القـروي البـسيط والـتفكير الشيطاني للنظام ومخططه الجهنمي المُدبر بالشر والمكيدة . . . ! !

ألقي القبض على سكان القُرى ومن سكن معهـم في المنطقـة المحاصـرة، ونفذ النظام مخططـه ولاح المـوت الجمـاعي والمأسـاة المُفجِعَـة في الآفـاق ، وسَطَّرهُ التاريخ في سجله الأسود، وحملت المأساة قصصا مُفْضِحَة ومُشينة لمن سعى فيها ضد الإنسان وكيانـه المقـدس أو سـكت عـن الجريمـة وأتـى بذرائع لها وصـوَّغَ معـاذير باطلـة لـسترها وإخفائهـا عـن أعـين النـاس ذوي الضمائر الحية. . .

16

ابتعدت الفتاة برفقة زوجها وبهْرَه وبعض من أقاربه قُرابة ساعتين ونصف عن القرية، وتخلوا عن الحشد المُشتت للرأي والمحتار لأخذ قرار مهم وحاسم...وانقطعت أواصر الجيرة بينهم جميعاً، وبعد جهد جهيد والمشي على الأقدام وقعوا في كمين الجحوش، ووضعوا أيديهم عليهم كفريسة نادرة وضعيفة في غابة نائية وبعيدة عن الحضارة والمدنية...

تعجبوا من الفتاة وجمالها، وفرقوهُن عن الرجال مباشرة رغم مقاومة شهزاد والفتاة للأمر إلا أنهم تصرفوا بشناعة وقسوة بالغة...

بكت الفتاة مع بَهْرَه بُكاءاً حاراً ، ورفعن أصواتهنَّ بالبُكاء والعويل والتضرع أمامهم..فهؤلاء الجحوش فقدوا أدنى معاني الشفقة والرحمة...ولم يأبوا للعبرات والأحاسيس المُعَبِّرَة ولا بفعلتهم البغيضة والكريهة ...!!

وعصبوا عيني شهزاد ومن معه من الرجال وفي غضون لحظات قلائل أبعدوهم عن نظر الفتاة وبهره وامرأتين أُخريين...!!

وقع الحدث كصاعقة نازلة من السماء على رؤوسهنَّ...واحترن من الأمر وتساءلن بتضرع وإذلال عن مصير رجالهنَّ، وتبسم المسؤول من قولهنَّ

واقترب من الفتاة ونظر إليها بعينين حادتين وتعجب من جمالها ، ثم وقع نظره على بَهْرَه وأُعجب بها أيضاً وقال:

ـ إنكن الليلة تحلان ضيوفا عليَّ...

وأومأ لرجلين من اتباعه فأخذوا الفتاة مع بَهْرَه للسيارة والمرأتين الأُخريين لسيارة أُخرى...

هبَّت المخاوف على قلبيهما وسيطرت عليهما ومسكت كُلٌ يَدَ الأُخرى بقوة، واحتكن أطراف منكبهنَّ ببعض...وردَّدتا الأدعية المأثورة وتضرعتا بالدعاء أن تَسلما من الشر والخطر المُهدد لشرفهما...

فانطلقت السيارة بسرعة فائقة ، وبعد ساعتين وبضع دقائق وصلت لبيت أشبه بمقرٍ على إحدى أطراف المنطقة وصاح الحماية والسائق عليهما:

ـ انزلا...

وبخوف مرتسم على وجهيهما وبريق دفين من الشعاع المُضيء لأعينهما نظرتا للمكان ووجدتاه خالياً من النساء والأهالي، وازداد خوفهما برؤيتهما للمكان...وبقسوة ووحشية جرَّهما اثنان من أتباع المسؤول لداخل البناية، ومُباشرة ودون مقدمة جرَّدوهما من اللباس واعتدى المسؤول عليهما بعد التمهيد له...!!

ومن شدة الأمر وصُراخهما ومقاومتهما لهم فقدتا الإحساس وأُغشي عليهما، ووقعتا على الأرض فاقدتين للحركة ولم تحسا بأنفسهنَّ إلا بعد مُضي الليل وإشباع المسؤول وحاشيته منهما...!!

هبَّت الفتاة كمجنونة وحاولت ستر جسدها بيديها، ورأت بَهْرَه بنفس الشكل وسترت كل منهما أطرافاً من جسد الأُخرى...وضحك الجحوش العديمي المروءة والرجولة منهما ، واصطفت مجموعة منهم ينظرون أمر المسؤول اغتصابهما من جديد... والتصقتا ببعض وكأن الموقف أشبه بكابوس أو رؤيا مخيفة قد تصحيان منها بعد بُرهة من الوقت...!! ووقف عقلهما وأحستا بالألم الخارج من داخل جسدهما وخافت بَهْرَه على وضع الفتاة أكثر من نفسها التي فقدت غشاء البكارة على يد المسؤول الماجن...وبكيتا بحرارة ونظرتا في وجه الأشرار الخائبين لمبادئ القومية والإنسانية...وصاحت بهره من شدة خوفها على وضع زوجة أخيها...!

ـ أيها الأوغاد إنها حامل ...قد تموت في أية لحظة ...يا عديمي الأخلاق افعلوا بي ما يحلو لكم ولكن هي تموت هكذا...إنها تعاني وتحتضر...!!

ضحكوا منها وتكلموا بكلام مشين وغير أخلاقي ثم قال المسؤول:

ـ كفى...كفى...ألبسوهما فلنسلمهما للقيادة...قضينا ليلة مُريحة معهما...وإذا تدهورت حالتهما فعندهم الحلول اللازمة... بسرعة...بسرعة...

وفي غضون ساعات سلمهما المسؤول للقيادة ، وكان الوضع في ذلك المعسكر الجوَّال أسوأ من المكان السابق...حيث تجمع مئات النساء والأطفال في وضع بائس وجردوهم من ملابسهم بحجة الكشف الطبي، ودخل فريق من المسؤولين الغُرفة وتجولوا وسطهن واختاروا الجميلات وأصحاب الأجساد الجذابة من بينهنَّ واصطفوهن جانباً...ووقع الاختيار أيضاً على

الفتاة وبهره وكُنَّ جميعاً في حالة يُرثى لهُنَّ وقد أصبن بنـوع مـن الجنـون ، ولم يعـد تـضرعُهنَّ ولا فقـدانهن للـوعي شـيئاً ،وأصـروا علـى إتمـام أمـرهم واختـاروا الجمـيلات وألبـسوهن الثيـاب المُمزقـات ثـم ركبـوهن في سـيارات مخصصة تابعة للوحدات. . .

لم يبحن لإحـداهن بـشيء ولا بـالتفريق بـين الأطفـال والأُمهـات ولا بـين الأقرباء. . .شهد الموقف دفن الضمير الإنساني والرجـوع للعـصور الهمجيـة وعيش الغابات وهجمات الوحوش الكاسرة. . . ! !

ساد البكاء والصيحات على السيارة المتحركة والمنُعزلة عن الأُخريـات ، ورفعن أصواتهن بالبكاء وخدشن وجـوههن وشـدَدن شـعورهُنَّ. . .وبجـبروت ووحشية ركب اثنان من رجال الوحدة الخاصة وقاموا بـضربهنَّ وإسـكاتهن، ولبشاعة أسلوبهما مسكن عـن الـصياح والحركـات الجنونيـة جـراء الحـدث، وبكين فقط بصوت خافض دون أن يُشعر بهِنَّ. . . ! !

واستمرت السيارة بالمرور لعـدة سـاعات . . .ثـم وصـلت لمعـسكر آخـر، فـأنزلوهن مـن الـسيارة وأدخلـوهن قاعـة مختلفـة وفيهـا مئـات النـساء الأُخريات. . .وتقدمهن رجال الوحدات الخاصة وصاح أحد المسؤولين فـيهن بقوله:

ـ لا نُريد مشاكل ولا بكاء وأحداث نـوع مـن الفوضـى. . .مـن صـالحكنَّ الحفاظ على الهدوء أهم ما في الأمر أن تُسَلِمن دون مقاومة. . .أنكـن سـبيات الحرب ونعاملكنَّ كجواري ونطبـق علـيكم نـص قـرار الـديوان الرئاسـي مـن السيد الرئيس. . . ـ حفظه الله ـ وأية مقاومة أو معارضة من قبـل إحـداكُن قد يؤدي الى إنزال العقوبة بالجميع..

وحاولن فهم وضعهنَّ إلى متى يستمر وتساءلن :

ـ هل نحن الآن معتقلات... ! ؟

صاح المسؤول من جديد:

ـ نعم ، ونجري عليكن كافة الأحكام وأنتم نساء المرتزقة والكفرة ونحن أسرناكم في الحرب شأنكم شأن السبايا ... ! !

حمل حديث المسؤول نبأ جللاً وخبراً شؤماً بالنسبة لنساء شريفات متزوجات ذوات السمعة النظيفة...ومعاملتهن كسبايا يعني أنهن يتعرضن للاغتصاب والبيع وكُل ما جرى في العهود الغابرة لنساء شريفات وقعن في الأسر من خلال الحروب الهمجية ...

لم تكن النساء يفهمن معنى السبايا ولا مدلولها بالكردية عندما ترجمها عميل مستأجر لهن، إلا الفتاة فهمتها مباشرة وحلَّقت تفكيرها نحو عالم مُظلم، ورجعت آلاف السنين كي تنتظر من العصر الحديث كيفية إعادة التاريخ الطبقي ونوازع القبائل، وثورات العبيد، وبيع النساء حُفاة عُراة في الأسواق بثمن بخس، وإهانة كرامة الإنسان وكيانه المُقدس، وغير ذلك من الحوادث التي يخجل التاريخ من ذكرها...

وركبوهن سيارات خاصة " ثم دار تفكير مُعظمهنَّ حول الأسر ومدلوله في العصر الحديث ، لكن الفتاة فهمت مُراد المسؤول ونواياهم باستخدام كلمة السبايا لأنها قرأت الكثير الكثير عن العصور الجاهلية والمراحل الماضية من التأريخ الإنساني...

وبأية عقلية يفكر القائد المغرور ؟! أما آمن الكورد منذ تباشير الصباح الإسلامي ...؟وخدموا الإسلام ورسالته في أحرج المواقف وكانوا سنداً قوياً ومدرسةً لتخريج العلماء الأفذاذ والقادة العظماء الذين غيَّروا مسار

حياة الأمة ؟ والمساجد المنتشرة في القُرى والمُدن الكوردية خير دليل على إيمان الكورد بالرسالة ودخولهم في دين الله أفواجاً منذ أن طرق الدعاة الأوائل حدود بلدهم... ! !

"وما الذنب والجريرة التي ارتكبوها ليستخرجهم الطاغية من الإسلام ويُطبق عليهم قانون الحرب وخاصة آيات الأنفال...أين العُلماء ذووا الضمائر الحية...؟!أين أنتم يا روح الحياة وأنوار المُجتمعات " هل الطاغية قد اشترى ضمائركم ودينكم بأثمان بخسة ومتاع زائل من الحياة ؟ انظروا ماذا يجري وما يفعله فرعون العراق بحق شعب مُسلم في معسكرات الموت والاغتصاب...

ها قد اغتصبت النساء وهُدمت مئات القرى شرقاً وغرباً، وقام بتفكيك أُمة مُسلمة على مرأى ومسمع منكم ولم تحركوا قيد شَعْرَة..."

مسكت الفتاة عن غيضها على العالم الميت وأُناسه الساكتين، وشعرت بغثيان ودوران شديد ، وأحست بألم خارج من رحمها، وسُمِعَ معها صُراخ " وفجأة سُمِع بكاء طفل وقامت بهره مع امرأتين أُخريين بفعل الترتيبات اللازمة لها ، ولم يجدن شيئا لقطع السُرَّة وقام أحد الزبانية بإخراج حربة كبيرة وقطع السُرة ومسك الطفل بإحدى يديه ، وأخذه بعيداً عن أمه وصرخت الفتاة قائلة:

ـ طفلي...طفلي...أرجوك أعده...

وترجت النساء الزبانية إلا أنه لم يستجب لهن، وطلب من السائق فتح الباب وضرب الطفل ككرة برجله ووقع من السيارة بعيداً ولازالت تُنَفِس

وتَصرُخ وتبكي والسيارة تَبتَعِد...وتتركه في بيداء قاحلة وطريق مخصص لقوافل القوات الخاصة...

أُغشي على الفتاة وفقدت الوعي، وشهدت قتل طفلها قبل لحظات أمام عينيها بقسوة ووحشية غير مسبوقة...

وصرخت النساء من جديد بالبكاء جراء الحادث الأليم على إحساسهن الرقيق ، وقاموا من جديد بضربهن وإسكاتهن ووضع المسدسات على رؤوسهنَّ...وجهدت بَهْرَه رغم شدة حالتها أيضاً في تهدئة الفتاة وحضنتها، وحاولت استرجاع الوعي إليها...والزبانية غير مهتمين بالأمر، وهبَّ الليل على الصحراء القاحلة والمخاوف تَزايدت عليهنَّ وسمعن نباح الكلاب وأصوات غريبة تخرج من قلب الصحراء وعالمه الفسيح والمُخِيف...!!

وتوقفت السيارة أمام بناية كبيرة وسط الصحراء وحواليها أشواك مغروسة وحراسة مُشدَّدَة ، ثم بعد أن أخذوا التصريح تحركت السيارة من جديد ودخلت البناية وأمر المرافقون النساء بالنزول... فإذا هي بناية كبيرة مبنية من طابقين صُمِمت خصيصاً لهذا الغرض...واصطفت النساء في ساحة البناية ونظر اليهن مسؤولها بعين جشعة وقال لأحد مرافقيه:

ـــ أحسنتم الاختيار...حقاً يُقال كلُهن جميلات ويفين بالغرض المنشود...

بعد تِعدادهن أمر الحُراس بتوزيعهن على الغُرف الصغيرة ، وانتهى أمر التوزيع بسرعة فائقة ، ووزعوا ثلاثة منهنَّ على غُرفة لا تتعدى نصف مترٍ ، وأُغلق الباب عليهنَّ...

* * *

قضت النسوة ليلاً مُضطرباً ومُخوفاً، ومع آلامهن وجراحاتهن وبداية شقائهن وإنهاكهن لم ينْعَمن بالراحة ولم يذقن طعم النَّوم...

ساء وضعهنَّ أكثر من الطريق، وحُرِمنَ من الحقوق المشروعة للأسرى...وعاملوهن بقسوة ووحشية لا مثيل لها...

كانت الفتاة في حالة مُحرجة وخطيرة ، بعد أن وضعت حملها ورأت أول طفل لها في هذا الوضع يولد ويُقتل مُباشرة بيد الجلاوزة وهي لا تزال تُكابد ألم المخاض والحمل...!!

وفقدت توازنها وانهارت معنوياتها ورقدت في الغُرفة رغم عدم تمكنها من مد رجليها أو التحرك بسهولة ويُسر...

ساعدتها بَهْرَه والفتاة الأُخرى، وسهرتا عليها وهدأتا من روعها وحالتها البائسة والمُنهارة...

مدَّ الليل جناحه المُظلم على قلعة الرُعب ، ولاحت مئات المآسي في الآفاق واحدة تلو الأُخرى...ولكل واحدة منهنَّ آلاماً وهموماً وجرحاً عميقاً...بدأت منذ تعرض المنطقة للقصف الوحشي ومُغادرة القرية وتفكك شملها...!!

وتصفية الذكور في معسكرات الموت واغتصاب النساء والسيطرة عليهنَّ كجواري وسبايا الحرب...

لم يهدأ بال إحداهن طيلة الليل وهُنَّ قد قضين يومين شاقين من المعاملة البشعة، وفتحن أعينهنَّ على مخلوقات غير آدمية...ووحوش برية ضارية...

تربوا على هدم الكيان الإنساني وحرمانه من الوجود...وهم من أبشع الطغاة على وجه الأرض...وصُمِمت قلعة الموت على شاكلة السجون النازية والروسية " فالغرف الصغيرة والخالية من الوسائل العصرية حتى من الكهرباء وعدم توفر الماء لأيام عِدَّة ...وانعدام وجود مكان لقضاء الحاجة، فكلها تعتبر وسائل شريرة استنبطها العقل المريض وخريجو المدارس القمعية واللاإنسانية...

ووجود السجن بمنطقة نائية وقاحلة أيضا وقُربه من الحدود السعودية لها معنىً ومدلولاً وغرضاً خاصاً...وتجري الأحداث في قلعة الموت على قدم وساق...ليلُها ليلُ الآلام والأرق والسهر بأسره، وغالباً ما يفتحون إحدى الزنزانات ويأخذون إحداهن ويأخذ الليل شكلاً آخراً من الصياح والإجبار على الاستسلام للمعتقلة البائسة ، وقد يرجعونها للزنزانة وجه الصبح وهي فاقدة للحركة والتكلم وكثيراً ما تنزف دماً ليومين أو أكثر من ذلك...

وعند بزوغ الفجر تُشهر المعاناة للمعتقلات من كُل جانب...ويقوم المسؤول ومعاونوه بإخراجهن من الغُرَف ويجبرونهنَّ على التعري والقاء الملابس والوقوف عراة ، ويتخطون وسطهن، وينظرون إلى محاسن أجسادهن بإمعان، ويختارون عدداً منهن لليل ورحلة المجون والهوس الشيطاني...ثم يحركونهن بالكرابيج وهنَّ مجردات من الملابس وما يستر

عورتهن...وفي الظهيرة يجبرونهُنَّ على الاغتسال في الساحة والمسؤولون ينظرون إليهن ، وبعد ذلك يلبسونهن اللباس الممزقات ويعطونهن صمونة واحدة وماء حارا مُلَوثا...!!

وقبل غروب الشمس يدخلونهنَّ الغرف ويعطونهن صمونة أخرى مع جبنةٍ صغيرةٍ مالحةٍ ، ويعطون كل غرفة قدحا من ماءٍ نتن ذي رائحة كريهة...

وأحيانا ما تُجبر المعتقلة على شرب بولها من العطش ، وإذا ما وقع اختيارهم على إحداهن لقضاء الليلة معها يعطونها صموناً زائداً مع قدح ماء كأجرة أو مكافئة على خدماتها...!!

ودامت الأُمور على نفس المنوال والسجية...ولم تعد النساء كلهن قادرات على تحمل الوضع ومأساة العبودية المتماثلة تحت حكم الطاغية وسدنته...وماتت الكثيرات منهن قبل مرورهن بالمرحلة المُعدَّة لهن ، ودفنوهن في الصحراء، أو قذفوهن في الحفر العميقة طولاً وعرضاً، وكانت هذه القلعة إحدى قِلاع الموت وبالقرب منها عشرات المعسكرات وأُتون الموت المخصصة لسبايا الأنفال...!

بعد مرور عشرين يوماً على اعتقالهن تحسنَ وضع الفتاة وباتت تستوعب الأحداث رويداً رويداً...وأخفت هويتها العربية عنهم وعاشت بين الأُخريات كمثالٍ حي يُحتذى بها في المقاومة وعدم اليأس من الحياة، ولم تَسلم من الاغتصاب وإجبارها على ذلك رغم صعوبة حالتها ودنو أجلها لمرات عديدة" إلا أن جمالها الساحر سبب لها متاعب ومآسي أكثر من غيرها...

وتحاورت ذات مرة مع بَهْرَه في الغرفة حول وضعهن وقالت:

ـ انهم حُثالة من الناس...ووضعنا يسوء يوماً بعد يوم...وانني كُل مرة عندما يجبرونني على فعلتهم الشنيعة أحس بفقدان جُزء من روحي وشعوري بإنسانيتي...

وردَّت بَهْرَه بقولها:

ـــ أرجوك دعكِ من الحديث عن هذا الأمر...فكلنا نحس بنفس الشعور...لو رأينا هذا الأمر في المنام لأصبحنا مجانين...!! ولكنني أشتاق لأمي وأخي...!

تنفست الفتاة من الحسرة وما ألمَّ بها وقالت:

ـ يا حسرتا على شهزاد...إن صورته لا تفارق مخيلتي وذهني...كم كُنا سُعداءَ معاً ، ويلٌ للأشرار وللطغاة ومن كان سبباً فيما أصابنا...!!

يا حبيبي أين أنت...؟!إنني مُشتاق إليك وكادت روحي تفارق جسدي لولا وجودك في قلبي و التمني برؤياك من جديد ..

وبحزن تام قالت بَهْرَه:

ـ وا أخاه ...وا أخاه...

+أرجوك إنني لازلت لحد الآن مُتمسكة بأمل قاتل...ولولا ذاك الأمل لتمنيت الموت...أو لمَوَّتت نفسي...شهزاد مصدر حياتي وروحي...لا...لا أتصور ذلك...ولا تخرج من بين شفتي...

ومن شدة الأمر بكت بشدة وشاركت بهره بكائها على نفس الوتيرة والحالة ، ثم قالت الفتاة الموجودة معهما في الغرفة:

ـ حَنان...بَهْرَه...أرجوكما لا تبكيان ، ولا تفكران إلا بنفسيكما... لا يُخفف الحزن والبكاء من شدة الوضع ومرارته...وحالنا ليس بأحسن من

عوائلنا وأقربائنا ، إننا في كل لحظة نموت ونحتضر ، أما رأيتما الأُخريات اللاتي دفنوهنَّ في الصحراء خارج هذه البناية...ليس هذا وقت التفكر بأحد...أرجوكما إنني مُحَطَّمة تماماً ولا أريد التفكر بأحد سوى بنفسي ، فراعيا شعوري إنني مثلكما تماما...

أخذ كلام الفتاة طريقه في نفسيهما وسكتتا عن البكاء ، لكن الفتاة غرقت في أعماق التفكير وخطت بعيداً عن أسوار الموت وقالت في نفسها: "يا حبيبي ونور عيني ...لست حُرة حتى في الحديث عن ذكراك ومآثرك ، وكم كُنت لطيفاً معي في اللحظات التي قضيناها معاً...لازلت مُغرمة بك وسأظل كذلك إلى أن أُفارق الحياة...وأُحبك بإخلاص وآسف على الحالات المُفْضِحَة فليس بيدي...انهم أراذل الناس وعديمو الأخلاق والمروءة ، تربوا على أيدي الحزب الفاشي العراقي ، وسقوا بدماء الأبرياء ، وفقدوا إنسانيتهم منذ أن لطخت أيديهم بدماء الأبرياء ومكنوا أركان حكم الطاغية وعضوا عليها بنواجذهم...يا سيدي وسِرَّ بقائي ونسمة روحي...أنا مشغوفة بحبك وصورتك لا تفارقني ، ورغم قلة نومي إلا إنني أحلم برؤيتك ولكنني لا أدري لماذا لا أراك مثل السابق...؟!هل أنت موجود ومازلت معنا أم الأشرار أوصلوك لعالم آخر...؟!أُجن من ذلك وأشعر بيأس غير منتهي وبفقداني للسعادة والهناء، وكل سبب جميل يجعلني أستمر في الحياة...

يا من أحببتك وصرت فارس أحلامي ودخلت شغاف قلبي أريد رؤيتك ولو للحظات...أرجوك لا تتركني وسط الأمواج العاتمة، والليالي المُظلمة،

وفي دنيا يَحكمها المارقون...ويُستعبد الناس بأمر جائر وحكم خال من الشرعية...".

وبلهفة وشوق تذكرت الليالي المُؤنسات بينهما وقالت:

ـ "يا حبيبي هل تتذكر كم قضينا معاً ليالي جميلة ولحظات عامرة بالود والحُب...! ؟وكم تعانقنا وحلمنا بغدٍ أفضل...؟! لازلت أعيش على الذكريات التي تدفعني للبقاء والاستمرار في الحياة...وأتذكر كل ما حدث بيننا ، وأشم رائحتك ، وطعم فمك ، وقبلاتك الحارة ، وأحاسيسك الرقيقة ، وكلماتك الرنانة، وصوتك الهادئ والخافض، وكل ما يتعلق بك أتذكره وأحفظه عن ظهر القلب...!

صحيح أنك من جنس الرجال لكنك لست مِثْلَهُم بل سيدهم وقدوتهم ومن طينة فريدة ونادرة...!

يصعب عليَّ فراقك والبُعد عنك إلا أنني الآن جارية ...سبية.. بأمر الطاغية صرت جارية ويعاملونني كجارية...ولست مالكة لأمري وارادتي...بحثت عن حُريتي ووجدتها معك وفي لحظة طارئة فقدتها بأمر جائر وصرت مع معاشر النساء جارية تُلبي رغبات المعدومين والأراذل من المخلوقات المتوحشة...!

يا له من قدر عجيب ومُصيبة قد لا يمحى أثرها حتى بعد المَمات...! وتترك هذه الحالة بصماتها على حياتي لو نجوت من الموت الذي يشهر لي كل ليلة مع تعرضي للاغتصاب وإجباري على تَحمُل الأمر...!

أنا آسف لما ذكرتُ لك من الحقائق ، وفقداني لإرادتي وإجباري على الاستسلام ، وأتمنى يوماً نلتقي ولو كان ذلك من قَبِيل المُعْجزات...!!".

17

بعد اعتقاله مُباشرةً أُخذ لأقرب نقطة تابعة لقوات الجحوش المُدَعَّمَة والمُساندة من قبل الوحدات الخاصة...استسلم للأمر وحارب مسالك الخوف والقلق ونظر لمصيره وكُل من كان معهُ بعينين مليئتين بالحياة ، ومع فَدَاحة الأمر والخطر المُحدق بهم إلاَّ أنه تبيَّن كجبل شامخ يصارع الصِعاب والموت المُشهَّر لَهُ من حينٍ لآخر...

هدأ نفسه ولم يبح بكلمة، ولم يتضرَّع مثل أقرانه وأقربائه ومن وقع في أيدي هؤلاء الأشرار...وطيلَة المَسافة من مكان اعتقاله للمقر والمَحبس الآني سيطر عليه إحساس غريب لم يشعر به من قبل...

تعجَّب من الإحساس الناشئ وشعوره ومن شدة إعجابه تبسَّم مرات ومرات دون سبب أو حدث وقع جراءَ قطعهم للطريق... ! ! غمَرَ ذاك الإحساس كيانه، وملأ قلبه بالأمل ونهايةً محمودة أو حُسن عاقبة يُحمد عليها في ملكوت السماوات... ! !

وفي أول الأمر عَجز عن تفسير إحساسه الغريب وشعوره الفريد... وتمالك نفسه ونظر للمعتقلين ووجوههم وما كانوا يتوقعون من هؤلاء الجلاوزة والسدنة المارقين... ! !

فرآهم يائسين وفاقدين للشجاعة والبسالة...انهُم يطلبون الشفقة من أُناس فقدوا الإنسانية وتربوا وسط وحوش مفترسة ، وعلى يد أعتم وأبشع نظامٍ شهدهُ التأريخ الحديث للعراق وللمنطقة...كيف للإنسان أن يرجو أو ينتظر منهم الشفقة والرحمة في حين مُنذ انضمامهم للحزب وقائدهِ الملطخة يَدَيه بالدِّماء فقدوا الإحساس الإنساني وباتوا في عِدَاد المُجرمين والقَتَلة ...

كيف يطلبون منهم الرحمة ويعطوهُم إحساساً بالقوة والغلبة والسيطرة عليهم؟! لماذا فقدوا الصبر ولم يُقاوموا حتى آخر رمَق ، أو يحطموهم ويحُسِسُوهم بالخزي والعار من فِعْلَتِهم...وما هُم بصددهِ...؟!ولِمَ الخوف من الموت والإصرار على حياةٍ فكل لحظة ويومٍ وأسبوع وشهر وسنة وعشرات السنين منها قِطعَة من عذاب ولم تحمل يوماً ما نوعاً من الشعور بالسعادة مُنذ أن رسا أمرهم وحياتهم في هذه المنطقة على هذه الشاكلة...وارتبط مصيرهم بثوار تحركهم دول حاقدة على الإنسان وخاصة الإنسان الكوردي، وأحزاب لا تُمَدُّ خُطاها بأدنى خدمة للمنطقة وكوردستان بأسرها...ومن جانب آخر فقدوا الحياة مُنذ إطلالة الحزب الفاشي على الحياة السياسية ومنهجِه الدموي في إرساء قواعد نفوذه وحكمه...!!فما للحياة طعم ومذاق ونشوة في بلد يحكمه جلاوزة وأميون " أو بالأحرى خائبو المُجتمع، ومن لم يكن يوماً من الأيام يُرجى خيرهُ ونفعه للإنسان ومُجتمعه...!!

بإيعاز من قوى خارجية وبوحشية لا مثيل لها تمكنوا من الوصول للسلطة ونفذوا هواجس الشر وما كان مكنوناً داخل نفوسهم ونظراتهم الضيقة والشوفينية...ووقعت الطامة جراء مُمارساتهم القمعية، ودُمر

العراق بإنسانه وتُربته ومحاصيله وواردا ته...أي يوم أحس الإنسان بالعزة والكرامة واطمئن في بلده أو بيته بالأحرى ولم تسيطر بوادر الخوف والهلع عليه من حادثةٍ أو أمر من الطاغية وسدنته المُنتشرين في كل بقعة من البلد...ولقد أنهك الإنسان الكوردي خاصة من حملٍ رزخَ تحته لسنواتٍ طِوال وعهود غابرة ولم يَرَ بَوادِرَ السَعَادَة والاطمئنان من أية حكومة ملكية وجمهورية وأخذت حياته تجري نحو التعقيد وعدم الاستقرار أكثر فأكثر...!

لهذا حريٌّ بأُناس مرَّوا بتلك التجارب المريرة عدم الاهتمام بالحياة والأمل القاتل " لأنَّ المآسي السابقة والأيام السوداء في سجل حياتهم ماثِلَة أمام عينيهم، وان التالي لم يكن يوماً بأحسن من السابق...!! وكأن الموت والدَّمار وخراب البيت والتهجير قَسراً مكتوب على الأكراد دون الأُمم الأُخرى...!؟ فويلٌ لحياة تحمل البؤس والشقاء وتفقد السعادة والاطمئنان...فلتنته حياة الخوف والقلق وعدم الشعور بالسعادة " ولتأت حالة أُخرى وان كان اسمه الموت والفناء وعالم آخر...!!

كان شهزاد مُقتنعا تماما بهذه النظرة وغير مُبال بمصيره ومصير من كان معَهُ...ولشعوره الغريب دور هام في إرساء أمره وتصوره " وان كان في نفسه نوع آخر من الإحساس بالشفقة على النساء والأطفال والشيوخ المعتقلين والتفكر بمصير الآلاف من قومه وهم ضحايا خداع الأحزاب الماكرة ونظام قمعي همجي...!ودفعوا ضريبة ممارسات خاطئة وثورة أوصلتهم لهذا المصير المحتوم...

وكان لاعتقال الآلاف المؤلفة من القرويين المحرومين وقعٌ أليمٌ على نفسية شهزاد وعقله ، ورأى في هذه الخطوة إنهاء للهيكل المتين للمجتمع الكوردي في هذه البقعة وتفتيت العُرى الاجتماعية للكورد، وإصابة الهدف بمكرٍ حاد ومرير، واعتبر الأمر بمثابة رصاصة الرحمة، وإن بدا الإجرام من هنا وهناك وتوزَّع على الأطراف سواسية وكل حسب جرمه وإشتراكه . . . ! !

انتهى عهد القرى المرسومة قُرابة ألفي سنة . . .وانتهت أنماط الحياة بأشكالها المُتعددة وظهرت بوادر غريبة في التغيير الحاصل وأصبح الجُرم يأخذ شكلاً مُغايراً وجريمة تتآلف بعد الحرب العالمية الثانية والعهد الذي سمي بعهد الحرب الباردة . . .وبدا الجبروت والدكتاتورية عياناً للعالم ، ولكن الصمت والسكوت حلَّ على الجميع ونام العالم على أُذنيه نوم الكَذِب والخِداع وعدم الدفاع عن الإنسان وكرامته . . .

وانطلاقاً من إيمانه العميق بالقدر واكتساب حياة أفضل بعد هذه المأساة اطمأن شهزاد على الأمر رغم فداحته وخطره ، وبعد أن جُمع الآلاف في السجون الخاصة نقلوهم في سيارات مُغْلَقَة لأماكن بعيدة ونائية في الصحراء . . .لم يكن أحد منهم يتصور وحشية النظام وأن همجية الحزب الفاشي في الوقوع بالأبرياء تصل لهذا الحد . . .وكان تفكيرهم يحلق في حبسهم شهوراً أو سنوات ثم إطلاق سراحهم بعد ذلك " إلا أن وحشية القائد الأُمي وأعوانه كانت أبعد بكثير من ذاك التصور " إنه تربَّى في الشارع وبعيدا عن أحضان العائلة ، وأصرَّ على الانتقام من الإنسان، وكسر هيكله، وملئت عيناه بالدَّم وطلب المزيد لإرضاء نفسيته المريضة . . .

وبعد إصدار الأوامر تحركت السيارات ليلاً ونهاراً دون توقف حاملين الأبرياء من القرويين لمثواهُم الأخير وهم أحياء بَعدُ ...الى أن وصلوا لأعتاب الحُفر العميقة والضيقة فرموهم فيها وأعدموهم فرداً فرداً دون رحمة أو عطفٍ نابعٍ من قلوبهم...وحمل المشهد عاراً وخزياً في جبين الإنسانية...وحلقّت الأرواح البريئة والطاهرة في السماء عاليا تشكو أمرها لخالقه وتروي تفاصيل مجزرة وقعت في البيداء ومناطق غريبة دون مُعاقبة مُرتكبيها...

وبعد رميهم بالرصاص في الحُفر جميعاً تحركت الحفارات لردم الحفر وإخفاء الجريمة الواقعة بحق الأبرياء...!!

وفي غضون أيام قلائل انتهت حياة الآلاف من الرجال والصبيان والشيوخ بهذه الطريقة الفضيعة...

وقضى شهزاد نحبهُ بنفس الطريقة " وهو قد تبسم في آخر لحظات حياته إبتسامته العابرة..وفي لمحة بصر رأى زوجته وأُمه وأفراد عائلته " الا أنه شعر بجسمه يبرُد رويداً رويداً جراء إصابته بطلقات في أنحاء متفرقة من جسمه وبِرميه في حُفرة مليئة بالأجسام...!!

وفارق الحياة مثل غيره وهو حامل لهموم كثيرة وأحزان غير منتهية وفراقٍ لأعز إنسانة في حياته ، وكانت نظراته الأخيرة تحمل طابعاً غريباً ومعاني مُتعددة كأنه يقول بلسان حاله: "يا أوغاد العراق إننا لا نموت بل سنظل أحياءاً ، ونحلق فوق رؤوسكم الشريرة، ونحمل الجزع والهلع لكم...

ياحبيبتي إنني الآن على شفا هاوية الموت ولكني لا أُبالي لأنني عازم على المقاومة وعدم الرضوخ لهؤلاء المُجرمين...ها نحنُ نموت جميعاً وننتقل لحياة أبدية والأشرار يمسحون غُبار الخزي والعار عن وجوههم...

يا أُمي الحنونة " ويا حُضن الصبا...!آه...!! كم هذه اللحظات صعبة على قلبي لفقدانها للإحساس والشفقة والرحمة...!!ولكني مطمئن بالرجوع للحضن الدافئ...

وداعاً يا حياة البؤس والشقاء ، وداعاً يا ظِلَ المارقين والملطخة أيديهم بالدم الإنساني...

إن هذه الجريمة ستظل وصمة عار في جِباهكم ، ونقطة سوداء في تأريخكم ، وإن الحياة ستستمر ويوماً ما تظهر براءتنا للعالم " وحينئذٍ يبدو القائد وأعوانه المُجرمين الأوباش كأشباح أو مجانين ووحوش في صورة البشر...!!".

وأثناء ساعات الليل ولَّى الجُرم الكبير ولم يبق من الأبرياء الاَّ من فرَّ مُنذ الوهلة الأُولى أو مَنْ ساعده أصحاب الضمائر الحية بمخاطرة كبيرة...

* * *

رأت الفتاة في منامها شهزاد بلباس أبيض وهو يُحَلِّق في السماء مع آلاف الرجال...ويبتعدون عن النَظر لحين أصبحوا نجوما متلألئة، والعالم ينظر إليهم نظرة إعجاب ودهشة...!!

وصاحت بأعلى صوتها:

ـ يا حبيبي...أرجوك ، لا تبتعد ولا تتركني مع الأشرار...إنني وحيدة وكنت أنتظر إطلالتك عليَّ...

واكتنف الصمت الموقف ، ولم يرد عليها " بل تبسّم كعادته في وجهها، وأصرت الفتاة على سماع صوته ، ولكن دون جدوى ، وبحركة عجيبة أفهمها أنه ذاهب لحياة أُخرى ومكان مُختلف عن الدنيا...وبكت الفتاة من شِدة الفِراق وصحت من النوم على أزيز صدرها وهيجان قلبها وزفرات عينيها...فعلمت رحيل الحبيب وانتقاله لجوار ربِّه وقالت بصوت منخفض:

ـ وداعاً يا حبيبي ، أتمنى وأتوق لنفس الخُطى والطريق...

ثم روت الحلم لبَهْرَه والفتاة الأُخرى وقالت الفتاة الموجودة معهما في السجن:

ـ إنَّ رؤياك حقٌ وأنهم قتلوا جميع المعتقلين وبقينا أرامل ويتامى ولا ندري ما مصيرنا بأيدي الأبالسة...؟!

وتساءلت بَهْرَه بشدة عن صحة الخبر:

ـ هل أنت مُتأكدة ؟!!

+نعم " قالت إحدى النساء بأن المسؤول سخر منها عند ذكر زوجها وأكد لها مصرع جميع الرجال ...!

أجهشت الفتاة وبهره بالبكاء، وسيطرت الكآبة واليأس عليهما وشعرتا بفداحة الأمر والفاجعة النازلة عليهما...ولم يعد في قلبيهما بريق الأمل وشُعاعه المُضيء وسط أمواج الأحداث العاتمة ، وشرَد ذهنهما، وخُفي عنهما مصيرهما المُعلق بأيدي وحوش فاشية وأُناس جَهَلَة وعديمي الرحمة والشفقة...

18

ارتبط مَصيرُ الآلاف المؤلفة من النساء في معسكرات الاضطهاد والموت الجماعي بقرار من الطاغية...وبقينَ فيها رغماً عنهُنَّ يتعرضن للاغتصاب ومعاملات قاسية...!وقضين شهوراً عِدَّة وهُنَّ يُكابدن مناخ الصحراء المُتأجج ورماله المُتَقاطِرة، والعيش في الغُرف العارية " والتي كانت تُشبه الكهوف المُعتمة...

وبدأت سلطات السجن حرباً شعَوَاء عليهنَّ بممارستهم سياسات وحشية بُغية إمرارهنَّ على أبشع وأفضح الأعمال في القريب العاجل...!

ونتيجةً للضغوطات الواقعة عليهنَّ تجنّنت عشرات النساء منهُنَّ أو أُصبنَ بنوع من الهستريا ونوبات جنونية وحالات نفسية مضطربة...!وفقدن الأمل وأصبحن كئيبات وعلامات الحُزن والمُصيبة باتت جزءاً من حياتهنَّ...ولم يعُد الصُراخ واللطم أو البُكاء أو طلب الشفقة والرحمة يُجدِي نفعاً...!وغَرِقْنَ في سُباتٍ عميقٍ وظُلمة عاتمة ، وفقدن ابتساماتهن وما يرمز للحياة من السعادة والشعور بتدفق الحياة...

وجراءَ وساخة الغُرف ووضعهن فيها أُصبن بأنواع شتى من الأمراض المُعدية والمُزمنة...ومع الجوع والحِرمان والشعور بالمهانة والأوساخ التي

التـصقت بملابـسهن المُمزقـة وأجـسادهن المـستباحة ! توالـدت الجـراثيم والقُمل وغير ذلك من مخلوقات قذرة ونتنة... !

ولم يُسمح لهُنَّ بقضاء الحاجة إلا مـرةً واحـدة في اليـوم والليلـة ، وخـلال لحظـات وعلـى مـرأى مـن الأعـين الجـشعة الـتي تقـف بـالقُرب مـن واجهـة المرحاض وينظر للنساء وهُنَّ عاجزات عن إخفاء عوراتهنَّ...

وكانت الكثيرات منهنَّ يأبين الذهاب للمرحاض خوفاً من تعرضـهن لهـذا الوضع، ويمسكن أنفسهنَّ " بل يقضين الحاجات في الغُـرف فأصـبح المكـان مُتسخاً كزريبة ذات رائحة كريهة تعبث الجراثيم فسادا في أجسادهن...

وفتَكت الأمراض بأعداد غفيرة منهنَّ، وحرمن من المداواة أو الإسـعاف " بل أخرجوهن من الغُرف وأخذوهن للصحراء ودفنوهن أو وأدوهن في الـتراب والحفر المُعدَة قبل ذلك " وهنَّ لازلن أحيـاء ويُكابـدن آلام المـرض والقـسوة والوحشية اللامنتهية... !

ووصلت مأساة المعتقلات البائسات ذروتها، ومات الكـثير مـنهنَّ وبقيـت آخـر حلقـات الإجـرام في خطـة الأشـرار دون تطبيـق ، لـذا أصـدر الـديوان الرئاسي قراراً ينص ببيع النساء الجميلات كجـواري لـبعض دول الخلـيج و شبكات الدعارة الشرقية... ! !

وتعاقدت السلطات مع أغنياء كُثر ، وتمَّ بيع الكـثيرات لهـم، ونقلـوهن في سـيارات خاصـة لتلـك الـدول وعـاملوهن معاملـة الـسبايا وهُـنَّ مُـسلمات ومُتَربيات في أحضان عوائل متمسكة بالدين الإسلامي... !

وحلت نصيب الفتاة وبهره مع أحد شبكات الدعارة ولإعجابهم بأجسادهما دفعوا ثمناً باهضاً للمسؤول البدوي الذي أراد تأخيرهن وبقاءهن في المُعتقل إرضاءاً لشهوته الجامحة وجشعه القذر...!

وأخيراً تمت الصفقة، ونقلتا فوراً مع نساء أُخريات لملهى في إحدى الدول...أصبحتا جسداً خالياً من الروح والشعور بالذات " وفقدن إرادتهن، وفي تلك الأيام العصيبة قلَّ كلامهما وأحاديثهما...ولم تتحدثا إلا نادراً...وأسكنهما تاجر الدعارة في غُرف خاصة بإحدى الفنادق وسَلَّمَهُنَّ لمسؤولة الساقطات...!!

وبعد مرور يومين من وصولهما وإفهامهما المطلوب أصبحتا ضمن ساقطات رخيصات، وهما مُجردات من الإرادة وإبداء الرأي...!وأجبروهما على الفعْلَة الشنيعة مع الكثيرات من النساء الأُخريات اللائى اشتروهن من معسكرات الأنفال المُختلفة بأثمان رخيصة وباهضة...!

واحترقتا من تلك الفعْلَة، وأُصيبت بَهْرَه مُنذ الأسبوع الأول بمرض خطير وقضت نحبها في إحدى الردهات أو المستوصفات التابعة للباند الإجرامي...

وبقيت الفتاة وحدها تُكابد الآلام وتشقُ طريقها بين التجار الجُدد للأجساد البشرية...

ولم يسمح المسؤولون عنها حتى برؤية بَهْرَه بعد إصابتها بالمرض القاتل ورأت فقط لفَّ جُثتها ووضعها في صندوق ثم نقلها لمكان مجهول...!

وفي ذلك اليوم تذكرت الأيام الخوالي والذكريات الحلوة مع العائلة وشهزاد ، وفجأة تذكرت أُمها وشعرت بالرجفة والهيجان من التفكير فيها ، ولاحت ملامح شهزاد في الآفاق وهو بزيه الرمادي وقميصه الأبيض " وكأنَّ الأيام تُعيد الكرَّة من جديد، ودورة الزمان تعود واللقاء الأول بينهما يسطر ويدون أعظم قصة حُب حقيقية بين حبيبين صادقين ...

وتذكرت كل لحظة حميمة، وكلمة بريئة وصادقة خارجة من بين شفتي حبيبها...وطرأ على مخيلتها طفلها الصارخ والذي لم ير النور إلا للحظات قليلة، وكيف قذفه ذاك الجلاد من السيارة في صحراء قاحلة بعد ولادته مباشرة ، وجعله لُقمة سائغة للسباع والوحوش...!!

أي قانون سماوي أو أرضي يسمح بتلك الجريمة والوحشية...؟!كم كانت تهوى أن ترضعه وتأخذه في حُضنها وترى فيه نسمة حيَّة من بقايا الحبيب الغالي ، ولكن يد الإجرام لم تترك لها شيئاً تفرح به أو تُخفف عنها آلام الفِراق والتعرض للمعاملة القاسية والاعتداء الجنسي علناً ...!!

آه ...من فداحة الأمر ووقعه على قلبها...!!ما معنى الوجود الإنساني إذا كان مقروناً بمئات المآسي والآلام...؟!وأيِّ معنى للحياة بهذا الشكل ؟

وقفت عن التفكير في الأسئلة الفارغة من الأجوبة، ثم فكرت في المشاهد المتعددة من جديد، وبحثت عن المزيد من تلك المشاهد بين المآسي التي حلَّت بهما، وتنفست بصعوبة وقالت في نفسها: "لازلت أعيش على ذكراك يا الغالي ...أحسب نفسي خبيثة ونتنة إلاَّ أن روحي حتى الآن نظيفة وقوية وأُقاوم الأوغاد والأشرار بنفس العزيمة السابقة...!".

ونظرت في المرآة لنفسها ورأت محاسن الجسم ولم تشعر بالسعادة التي كانت تحس بها عند رؤيتها لنفسها سابقاً...وحَسَرت على حالتها وكرهت جسمها شبه العاري والمُعِد للدعارة...وبنظرة ساخرة ومليئة بالحزن والأسى قالت: "انك مصدر شُؤم عليَّ دائماً...كم أكرهك " لأنك غذيت الأشرار وصرت جيفة ملقاة لهؤلاء الأوغاد...كم أكرهك يا جيفتي البالية...!!".

ثم نظرت في الغُرفة فرأت سريراً مُمتداً ومرآيا عديدة، وثريا وسط الغرفة، ودولاباً فاخراً ،وثلاجة وأنواعاً من الكاسيتات الخلاعية مع فيديو وتلفزيون...وتذكرت إرغامها على ممارسة الجنس مع رجال كُثَر وفي حالات عديدة وهي مجردة من حريتها للأبد...وخلال هذه المُدة لم تفكر يوماً بالفرار أو بطلب الاستغاثة من أحد ، فالرجال الذين عاشروهن كانوا مجردين من الإحساس وهم حُثالة المجتمع وأراذلهم ، كيف يسمعون من ساقطة رخيصة حديثاً خطيرا كهذا..! ولو شمّ الرئيس العام للشبكة خبراً بالأمر لدفنها بيديه وسط مقبرة مجهولة وفي قبر عميق لا أحد يحس بها...!وكُل الوجوه المتواجدة والجنسيات المختلفة التي عاشروها كانوا من نفس الطينة وليس لهم غرض في الحياة سوى المُتعة والفوز بالجسد الناعم ومحاسنه الساحرة...!

ولكن لابُدَّ من وجود مخرج للخروج بصيحة أو صُراخ يسمعها العالم وتبلغ صداها عنان السماء...فكَّرَت طيلة أسبوع كامل ونظرت في النافذة الصغيرة للغرفة" فرأت مئذنة مسجد قريب والناس يمارسون حياتهم ، وتجدد عندها الأمل في الفرار وفضح المسؤولين عن الإبادة الجماعية

والمعاملة التي تعرضن لها...شعرت برغبة جارفة في الكتابة والتعبير عما يُكن بداخلها وما أصابها في أُتون الموت الفاشية...ووجدت حزمة من الورق وقلماً ، وبسرعة فائقة مسكت القلم بيدها وكتبت:

***إلى من عنده أدنى شعور بالمسؤولية تجاه الإنسان..**

***إلى أصحاب الضمائر الحية ومن يُدافع عن الإنسان وحقوقه وكيانه وشخصيته وقداسته...**

***إلى مُنظمات حقوق الإنسان في الشرق والغرب...**

***إلى الأُمة العربية الغراء...**

***إلى الأُمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها...**

***إلى أُمم الغرب المُدافعة عن حقوق الإنسان ...**

***إلى جامعة الدول العربية...**

***إلى المحاكم الدولية لجناة الحرب في العالم...**

لا أشك في مدى استغرابكم لصيحات الاستغاثة ومُناشدتي لكم من خلال هذه الرسالة...

يا من عنده أدنى شعور بالمسؤولية " إنَّ جحافل القوات الغازية والمُدَّعمة من قبل أكثرية دول العالم والمنطقة قامت بهدم آلاف القرى العامرة بالسُكان في كوردستان...

وكان الناسُ يمارسون حياتهم بشكل عادي وهم مقتنعون بمستويات متدنية من المعيشة...وسُعداء بقُراهم وموطن أجدادهم " ولكن الأيدي الشريرة والماكرة أبت التخلي عن الإجرام والوقيعة بالأبرياء، فقصفت القُرى بأنواع شتى من الأسلحة المحظورة دولياً وبما فيها الأسلحة الكيماوية

...وقضى حتف الآلاف من الأبرياء وشُرد الآخرون عن قُراهم وحُرموا من أدنى الحقوق المرسومة في دساتيركم...

ويا ليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، إذ أن طاغية العراق أمر بهدم القُرى واعتقال ساكنيها وتصفيتهم في المعسكرات المُسماة بالأنفال...وقد حَسِبَ الأكراد كَفَرة ومارقين، واستباح دمائهم وأعراضهم ...فأعدم رجالهم دون تأن ، وأتبعهم قتل أولادهم وشيوخهم...وخلال مُدةٍ قصيرة انتهى أمر القرويين الأبرياء بشكل فضيع " حيث هُدمت قُراهم ونُهبت محاصيلهم وبيوتهم ومواشيهم وكل ما كانوا يمتلكونه وأُعدموا بشكل جماعي، ثم قذفوهم في الحُفر العميقة وحثوا عليهم التراب ... !

ولإكمال الجريمة أمر الطاغية باغتصاب نسائهم وبناتهم واعتبارهن جواري وسبايا الحرب ... ! !

ومن هُنا بدأت قصص فضيحة، وأُعيدت عهد المعسكرات النازية، وانتهاك حُرمة الإنسان " فوقع الاغتصاب بحق النساء سواء كن متزوجات أم بنات تحت سن الزواج وغير ذلك ...وماتت الكثيرات منهُنَّ جراء الاعتداء والوضع المأساوي للمعتقل الخالي من أدنى الخدمات الضرورية للإنسان... ! وأُصيبت كثيرات منهنَّ بالمرض ووأدوهن في الصحراء وهنَّ لازلن أحياء... !

وبعد عدَة أشهر من وقوع الجريمة أصدر الطاغية أمراً آخر ببيع النساء للأغنياء وتُجار الدعارة الشرقية... ! !

وفي غضون أيام قلائل نفذ الأمر وأصبح مصير آلاف النساء بيد أُناس عديمي الرحمة والشفقة... وإنني كعربية الأصل دفع بي القدر إلى

صـفوفهنَّ، وتجرّعـتُ المـرارة والبـؤس والـشقاء وفقـدان شـريك حيـاتي وطفلي...بالإضافة إلى ذلك حرماني من أحضان العائلة للأبد" لذا أُناشدكم أن تتحركوا لمحاكمة الجُناة ومـن كـان لـه أدنـى صِلة بالفاجعـة، وخاصـة طاغيـة العـراق وأعوانـه ومـن اشـترك في هـذا الجُـرم بـأدنى شـكل...وأن تُخلصونا من قيود العبودية والرذيلة...

إننا نُعاني آلاماً جساماً منذ اعتقالنا ، ولازلنا نعـيش في وضـع مفـضح وغير لائـق ، وألبـسونا زي الـساقطات ، نخـدم في الملاهـي والفنـادق لـيلاً ونهاراً...

وإن الكثيرات منا لقين حتفهنّ جراء أصابتهن بالمرض مـن شـدة هـول المصيبة ووقعها الأليم على أنفسهنَّ...!

وأُناشدكم لفضح المشتركين في الجريمة ورد الاعتبار لكل من بقي وخرج من أُتون الموت سالماً...

لتنتصر الإرادة الحُرة على العبودية والطغيان...لي**نتصر عـالم تـسوده القوانين الدولية والمحافظة على كرامة الإنسان...**

التوقيع

حنان عبد السلام

فتاة من بغداد

ووضعت القلم جانباً ، ثم شـعرت بخطـورة الخطـوة الـتي بـدأتها ولففـتِ الورق ثم أخفته تحت السرير وترقبت وضع الفندق والملـهى ، وقـضت آخـر

ليلة لها في هذا الوضع المشين ، وقررت المغادرة قُبيل الفجر " متوجهة برسالتها نحو منظمات حقوق الإنسان ، ومن يهمه أمر الكرامة الإنسانية أو إلى الشارع الإنساني ودور العبادة " المساجد والكنائس والمعابد وكل هيئة معنية بشؤون الإنسان...

شعرت براحة البال بسبب خُطاها وعزمها الحاسم على إبلاغ المُجتمع الإنساني بالجريمة الشنعاء رغم تعرضها للفعلة الشنيعة في تلك الليلة ...

وإثر تهدئة الملهى والفندق معاً مسكت الأوراق ،وخطت بخطوات ثابتة وخفية نحو الباب الخارجي للبناية وفتحتها ، ثم خرجت من ذلك العالم الماجن والشرير ..وفي غضون لحظات عبَّرت الشوارع وراحت تركض لاهثة نحو أية مؤسسة إنسانية لإبلاغها تفاصيل الجريمة ... وملئ قلبها فرحاً لإسترداد حُريتها وكسرها لقيود العبودية ... وتمنت وصولها لأقرب المعنيين بحقوق الإنسان...لكن يد الشر طالتها ولم تقف مكتوفة الأيدي، وخلال دقائق قليلة عثروا عليها وهي تهرب منهم على بُعد أمتار ، وطاردوها لكنهم يأسوا من أسرها واعتقالها، لذا ضربوها بالسيارة من الخلف بشكل فقدت الحياة مُباشرة والأوراق تطايرت في الهواء، ووقعت على الأرض وانتشرت الأوراق هنا وهناك...وجمعوها ثم تركوا الجُثة وقد اطمأنوا من نهاية أمرها...

اختفت حقائق المجزرة ومآسيها عن الناس ، وَطُوى سِجل معسكرات الأنفال وآثار الجريمة...ومُنذ أن ولَّت تلك الأيام مُحِي أثر الجريمة واختفت تفاصيلها ، وبقي القليل منهم أحياءاً يمارسون حياتهم بشكل بائس ويعانون تحت عبء الحياة الجديدة ووضعهم المُنهار...

وأصبحت الأنفال واقعة أليمة في التأريخ الكوردي بتجدد ذكرى رحيل الأبرياء كل سنة وإقامة المآتم والعزاء، وذكر مآثرهم ومناقبهم ومأساتهم ، وظلَّ الأمر قصة مألوفة وحدثاً مأساوياً وقع في العهد البائد، وسطَّرت أحداثها في سِجلٍ مليء بالشجون وأوراق متعددة كُل طرفٍ يقف بمنأىً عنها ، ويدعي البراءة وعدم المشاركة فيها...

((النهاية))